الحياة بعد الحياة

رحلتنا من الموت إلى الملكوت

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

الحياة بعد الحياة

رحلتنا من الموت إلى الملكوت

الحياة بعد الحياة

رحلتنا من الموت إلى الملكوت

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إخوتي وأخواتي،

أحاول وإياكم في صفحات هذا الكتاب اقتحام ذلك الموضوع الذي طالما هربنا من التفكير فيه، وطالما استبعدنا الوصول إليه، فكثيراً ما شغلتنا هموم الحياة عن التفكّر في الموت، والتخطيطُ للسّنة القادمة عن العمل للحياة القادمة.

كثيراً ما ظهر لنا فالتفتنا عنه ولم ننظر إليه، كثيراً ما ذُكّرنا به فتجاوزْناه ولم نقفْ عنده، وكأنّما نمارس الهروب من الموت بالهروب من ذكره.

ولذلك فإني وإياكم نحاول في هذا الكتاب مواجهة هذا المصير والتفكر فيه قبل الوصول إليه ومواجهته.

نقف أمام بوابة الموت والحياة بعدها بتفكُّرٍ يُحْدِث يقظةً، ونظرٍ يُحدثُ مراجعةً.

لقد بقي الموت وما بعده لغزاً غامضاً في كثير من الثقافات البشرية، وبقدر ما نحاول إيجاد إجابة شافية عن السؤال المُلِحّ: «ماذا بعد الحياة؟» تبوء المحاولات بالفشل، فأينما تتّجه لا تجد ما يُقنع العقل، ويُطمْئِن القلب.

فهناك مَن يعتقد أن الموت عدمٌ وأنّ مصيرنا أن نكون تراباً في الأرض.

وهناك مَن يعتقد بالتّناسخ بين الأرواح، وأن هذه الرّوح تخرج من جسد لتحلّ في جسد آخر.

وهناك تصوّرات أخرى أكثر غرابة، لأنها اقتحمتْ عالم الغيب المحجوب، وحاولتْ أن تضع له تصوّراً وفق رصيدها الثقافي البِدائيّ.

وكل نُظَّار المعرفة بكل توجّهاتها ومدارسها، وكلّ أرباب الديانات بكلّ طوائفهم تتطلّع نفوسهم إلى الإجابة الشافية عن التساؤل الكبير: «ماذا بعد الحياة؟».

وكلُّ تصورٍ لعالَم الموت وما بعده سوف ينتهي إلى الحيرة والتخبّط في متاهة الظلام الدامس، وليس هناك تصوُّرٌ يقينيّ حقيقي للموت وما بعده إلا ما يأتينا يقينيّاً ممّن خلق الموت والحياة، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فالذي أخرجنا إلى هذا الوجود ثم سيستردّنا منه لـمْ يدَعْنا في عماية الحيرة، ولكنْ أنزل إلينا وحيَه، وأرسل به رسله، ليُخبرنا عن بداية التكون في الوجود، والحكمة من هذا الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وأننا بعد هذا العمر العابر في هذه الحياة سنرجع إلى الرّب الذي أوجدنا، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

وجاء تفصيل مراحل رحلة الخلود مفصَّلاً ومصوَّراً حتى كأنّما نعيشه قبل أن نصير إليه، منذ سكرة الموت ومغادرة الحياة إلى البعث يوم القيامة، ومراحل البعث والحساب والجزاء ومصير الخلود الأبديّ، إمّا في الجنّة للمؤمنين، مع وصفها وحال المنعَّمين الـمُرَفَّهين فيها، أو إلى النار للمجرمين، مع وصف عذابها وآلام المعذَّبين فيها.

وحين نتلقّى حقائق رحلة الخلود من آيات القرآن فإنّا نجدنا أمام أمرين مهمَّين:

الأول: يقينيةِ هذا الخبرِ وقطعيَّتِه، فهذا الخبر ليس ظُنوناً، ولا استنتاجات ولا توقّعاتٍ لأحد، ولكنه خبر يقينيّ ممَن أوجد الحياة بقدرته، وسيُنهيها بمشيئته، ثم سيتولّى أمرها ومصيرها، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وإذا كان الخبر ممّن بدأ الخلق وإليه مرجعه ومنتهاه فهو الحقيقة بلا شك، وهو اليقين بلا ريب، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

الثاني: وضوح هذا المصير، وتصويره لنا كأنّما نراه ونعيشه، فقارئ القرآن يمرّ بآيات الموت وما بعده، فيحسّ بمشاعر مَنْ عاين الآخرة وفارق الدنيا، ويتصور معاناة المحتضر المحجوبة عنّا، ثم تنقله الآيات إلى مشهد البعث بعد الموت، فكأنّنا نعيش دهشتهم وذهولهم، ونرى صدمة المكذبين وفجيعتهم، ويسري المشهد إلى عرض الكتب ومساءلة الحساب ووزن الأعمال، حتى يصل أهلُ الجنة إلى نعيمهم، فكأنما ترى الخُضرة والنّضرة والبشرى والرضا، وجلساتِ السرور، ورفاهية النعيم، وهناء العيش، وأمان الخلود.

وينقلك إلى أحوال المجرمين وهم يعذَّبون في الجحيم، حتى كأنما ترى كَرْب الحال، وشدة العذاب، وأليم العقاب في سعير الجحيم وأغلالها، وحميمها الـمُحرق، وطعامِها البشِع، مع حسرة أهلها وإياسهم، وطول ندمهم على شهواتهم المحرَّمة وجرائمهم السابقة.

ولِذا جمعتُ هذه المشاهد القرآنية لرحلة الخلود، حتى نرى بيقينِ الإيمان مشاهدَ الحياة بعد الحياة، ورحلتنا من الموت إلى الخلود.

ومع أني صحبت القرآن في كل مراحل عمري منذ تفتّح وعيي، فإني عندما وقفت مع الآيات مجتمعةً أتأمل مشاهدها، وأتنقل مع مراحلها، شعرت كأني أقرأ هذا في القرآن أوّل مرة، فالقرآن يصف الآخرة وكأنّها حاضرٌ واقع، في مشاهد تضجّ فيها الحياة وتتسارع الحركة، فمِنْ فُجَاءة البعث بعد الموت إلى هيبة الوقوف لجلال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]. أي هيبة ورهبة تملأ فجاج النفس كلها حينما تتصور هذا الحدث كأنّما هو واقع قد وقع! فالناس قيامٌ لجلال الله، والأرض مُشرقةٌ بنوره، والكتاب قد وُضع، والنبيّون والشهداء قد حضروا، وها هو القضاء يُقضى، وها هو المصير والجزاء ينتهي إلى خلود دائم: في نعيم مقيم أو عذابٍ أليم.

إنه انفعال يحدث في القلب لا تُحسِن العبارة وصفه، ولكنْ تعيشه وتنفعل به، ولِذا جعلت الحضور لوصف الآيات وتصويرها.

إن عيش الآخرة من خلال آيات القرآن خير محفّز للاستعداد لها، وهو استحضار ينبغي أن يتكررَ تأمّلُنا له، وأن نتعاهد النفس بتذكُّره، حتى لا نستنيم للغفلة، أو نغتر بطول الأمل، فالأمر أعجل من ذلك، فما أسرع أن تُطوى مراحل العمر، ويقطع الأجلُ كلَّ أمل، ونواجهَ بوابة الموت، فنكون قد وصلنا إليها على استعداد للمواجهة، وتأهبٍ للرحلة.

اللهم أحسن ختامنا ومنقلَبنا، وأنلنا كريم فضلك، وحسنَ جزائك، إلهَ الحق ربَّنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

كالي/ كولومبيا

الجمعة ٢٢/ ١٢/ ٢٠٢٣م

تمهيد
خواطر في الموت والحياة

أولاً: طريقنا إلى الموت

ثانياً: أهكذا الموت، أهكذا الحياة؟

ثالثاً: الموت وحياةٌ بلا إيمان

رابعاً: الإيمان في استقبال الموت

خامساً: الاستعداد للموت

سادساً: ذقت طعم الموت

سابعاً: الإنسان والبحث عن معنى

ثامناً: في ساحة سراييفو

تاسعاً: رهاب الموت

عاشراً: كشف أستار الموت

أولاً: طريقنا إلى الموت

جلس النبي ﷺ وحوله أصحابه، ففاجأهم أن النبي ﷺ يرسم على الأرض خطوطاً وكأنّما يعمل رسماً توضيحيّاً، فخطّ خطّاً مربعاً، ثم خطّ في وسط المربع خطّاً خارجا عن محيط المربع، ثم خطّ خطوطاً صغاراً تتّجه إلى هذا الخطّ الذي في الوسط. ثم قال: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**».

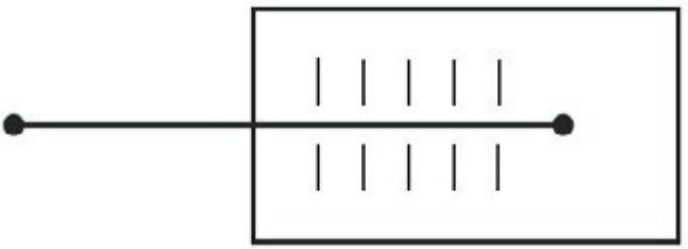

وفاجأ الصحابةَ المشهدُ، وتطلّعوا لمعرفة ما يدلّ عليه هذا الشكل، وقالوا: الله ورسوله أعلم. فبدأ النبي ﷺ يشرح هذا الرسم ويبين معناه

ومثاله، فقال: «**هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ الإِنْسَانُ**». وأشار للخط الذي داخل المربع، ثم قال: «**وَهَذَا أَمَلُهُ**». وأشار لنهاية الخط خارج الـمُربَّع، ثم قال: «**وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ**». وأشار إلى الخطّ المربّع المحيط به، فبينا الإنسان ينظر إلى أمله إذْ أحاط به أجله، فقطع عليه آماله البعيدة، والتي كان عمره أقصر منها.

ثم أشار إلى الخطوط الصغار التي تحيط بالخط الذي داخل المربَّع فقال: «**وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**»[(١)]. أي: هذه أعراض الحياة وأحوالها وآفاتها التي تشغل الإنسان فتذهله عن أجله المحيط به، وتمُدّ نظره إلى أمله البعيد عنه، فإنَّ أملَ الإنسان وخططه أطولُ من عمره، كما قال ﷺ: «**لا يَزَالُ قَلْبُ الكَبِيرِ شَابّاً فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأَمَلِ**»[(٢)].

إنها صورةٌ توضّح حالَنا مع أملنا، وغفلتَنا عن أجلنا المحيط بنا والقريب منّا، فمنذ ساعة الميلاد الأولى ونحن نسير إلى هذه النهاية، وكل يوم يمضي من حياتنا فهو يقرّبنا إلى يوم موتنا، ونعيش حياتنا كالساعة الرملية، فكلُّ ما زاد في ما مضى نقص ممّا بقي، كما قيل: يا ابن آدم، إنّما أنت أيّام معدودة فإذا ذهب يومك ذهب بعضُك[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤١٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٢٠).
(٣) «الحلية» لأبي نعيم (٢/ ١٤٨).

ومع هذه اليقينية بمسير الحياة إلى منتهاها إلا أن النفوس تتحاشى التفكير في هذا الأمر ووضعه في مركز التفكير، قال الحسن البصري: ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت[١]. فنحن نمضي في حياتنا وكأنّ الموت شيء يحدث للآخرين غيرنا، فلا نحمل هذا المصير على محمل الجد، ونرتجف رعباً حينما نفكّر فيه، وتضطرب حياتنا عندما نُدخله في حسابنا، ولذا كثيراً ما نفترض سنّاً متأخرةً للموت، ونُذُراً تأتي أمامه تُمهد له، مع أن الموت لا يحتاج إلى أسباب كثيرة، وليس له سنٌّ محددة، وإذا لم يأت الموت فجأة جاء المرض فجأة.

إنّ كراهية الموت وحب الحياة أمر فطري، ولكن كراهية الموت لن تُبعده، وحب الحياة لن يطيلها، وسيظل الموت المحطة التي تستقبلنا في طريقنا، ومهما هربنا منه فسنصل إليه، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، وتبقى الحقيقة أننا سنموت، يموت كلٌّ منّا وفي نفسه حاجاتٌ لم يقضِها، وآمال لم يدركها، ويغادر الحياة ويترك خلفه أعماله وأمواله وآماله، ويخرج من الدنيا وحده بلا شيء، كما أتاها وحده وليس معه شيء، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وتتضح هذه الحقيقة عند الاقتراب منها، وتتغير النظرة إلى الحياة عند مواجهتها، فتأخذ الدنيا وما فيها حجمها الحقيقي، فينطفئ وهجها، ويبهت بريقها، وينكشف زيفها.

---

(١) «اليقين» لابن أبي الدنيا (٤٢).

وممّا يُروى عن أحد الأغنياء أنّه نظر إلى أمواله عند موته، فقال: يا ليتها كانتْ بَعَراً[١].

لقد انطفأ بريقها، وذهب إغراؤها، وهانت بعد أن كانت عزيزة، ورخصت بعد أن كانت غالية.

وعندما حضرتْ عبدَ الملك بن مروان الوفاةُ قال: يا دنيا، إنّ طويلك لَقصير، وإن كثيرك لَحقير، وإن كنّا منك لفي غرور. وأمَرَ في مرض موته بأن تُفتح أبوابٌ في قصره، فسمع صوت غسّال يغسل الثياب، فقال: ما هذا؟. قالوا: غسّال. قال: يا ليتني كنتُ غسّالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيوم، ولم أَلِ ما وليت. فلـمّا بلغَتْ كلمته أحد العلماء قال: إنهم ليرون فينا عِبَراً، وإنا لنرى فيهم عِبراً، الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرّون إلينا ولا نفرّ إليهم. أي يتمنّون حالنا ولا نتمنى حالَهم[٢].

ولا زلت أتذكر عندما كنت مريضاً في المستشفى بين الغيبوبة والإفاقة، أكاد أحسّ بالموت جاثماً بقربي، وأنّ هذه نهاية نهايتي، ثم ألتفِتُ إلى النافذة فأرى المدينةَ الصاخبة ببناياتِها وزحامِها وحركتِها فأرى هذا كله رماداً منطفئاً، وأستشعر قرب نهاية هذا الركض اللاهث، وهذه النظرة إنّما

---

(١) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ، (١٠٠). والبعر: هي الفضلات الخارجة من الإبل والغنم.

(٢) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١١٢)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ٣٩٥).

جلّاها استشعار النهاية القريبة، وأحسب أنها النظرة التي يرى بها كلُّ مَن يعيش هذه الحال وينتهي إلى هذا المصير.

وكما تنتهي المطامع عند الموت فكذلك تنطفئ الأحقاد، وتضمحلّ العداوات، وتنكشف تفاهة أسبابها.

ثانياً: أهكذا الموت، أهكذا الحياة؟

كنت أقرأ القرآن بسكينة وسكون، ووحدةٍ وتوحّد، وشرعت في سورة «المؤمنون»، وفي كل آية تُشع أنوار المعاني وتُشرق في أرجاء النفس، حتى بلغت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. وعشت مع هذه الأطوار، وهذا التفصيل لمراحل الخلق الأولى، والتكوين في عالم الأرحام، وتهيّأت النفس لتفصيل أكثر بسطاً لأطوار الحياة ومراحل النّموّ، من الطّفولة إلى الرجولة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الشباب إلى الشيخوخة، ولكن ما أن تجاوزت لحظة الميلاد حتى فوجئت بصدمة كالصَّيحة، جاءت بعد كل مراحل التكون الأولى قبل الميلاد، ليكون ما بعدها مباشرةً: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

ووالله إنها كانت صدمة مدهشة، ووقفت عند الآية أتأمّلها بذهول، ولم أستطع تجاوزها، وقفت أسترجع المعنى، وأتروى من الدلالة، وأتساءل: يا الله! أهكذا بعد كلّ هذا التحضير للحياة بأطوار التكوين الأولى ننتقل فجأة إلى الموت ثم البعث؟!

يا الله! أين الحياة وأطوارها؟ والسنين وأحقابها؟ أين كبَد الحياة وكدّها؟ أين جهدها وجمعها؟ كلّ هذا طُوِي سريعاً، ومضى كلحظة أو كومضة، وكأنّه لا يستحقّ أن يذُكر لضآلته بالنسبة إلى آماد الموت البعيدة قبله، وآمادِ الموت المديدة بعده، ثم مصيرِ حياة الخلود الأبدي بعد ذلك، وشعرت بغفلتنا التي تشبه الغيبوبة عن هذا المصير المحتوم، وكيف نسير إليه في استغراق مع شؤون حياتنا حتى يتلقّانا فجأة، فيقطع مآربنا، ويوقظ غفلتنا، وينقلنا إلى مصيرنا.

كيف يغيب بعيداً عن تفكيرنا؟! وهو المصير اليقيني بلا شك، القريب القريب فلا بُعدَ، المباغِت بلا نُذُر.

ولا زلت أتذكر ذلك اليوم وتلك الساعة وذلك الموقف، أتذكر فُجاءة الدهشة وكأنّي أقرأ هذه السورة أول مرة، وأقف مع هذه الآية أول مرة.

لا زلت أتذكر رجفة الفزع، وذهول الصدمة، ولا زلت أتفكر بعدُ كيف يكون الموت منّا بهذا القرب ولكنه بعيد في تقديرنا، كيف يكون حاضراً بيننا وغائباً عن أنظارنا.

اللهم أيقظنا من رقدة الغفلة، وهيّئنا لحال النقلة، وأحسِن ختامنا ومنقلَبنا.

ثالثاً: الموت وحياةٌ بلا إيمان

إن النظرة إلى الموت والتعامل معه يحددها النظر إلى ما بعده، ولقد قرأت مذكرات المحتضَرين التي كتبوها حال معاناتهم مع السرطان فكتبوا آراءهم ومشاعرهم في آخر أوراق العمر.

ولاحظت كيف يودع الحياة مَن لا يؤمنون بحياة أخرى، فيرون الموت نهاية النهاية ورحلة العدم، وأنّهم سينتهون كما تنتهي أيُّ حشرةٍ سحقتها قدمٌ تسير في الطريق ثم تجاوزتها ولم تشعر بها، وأن مصيرهم أن يكونوا سماداً للأرض، وسينطفئ ذكرهم مع آخر جيل يذكرهم.

وهي نظرة تصوّر عبثية الحياة التي تبتدئ بصدفة، وتنتهي إلى عدم، وينتهي ما عملنا فيها من خير وشر إلى ذكرى حسنة أو سيئة عند مَن يذكرها، إنْ ذكرها.

وهذه النظرة العبثية للحياة هي التي أنكرها الله عليهم فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

ونجد هذا التصريح بعدم الإيمان عند «مارلين يالوم» فتقول وهي تودّع الحياة: أنا لا أؤمن بحياة أخرى، ولن يكون لي وجود بعد أن أموت، وحالنا بعد الموت هي كحالنا قبل أن نولد(١).

وعند كوري تايلر وهي تقول: لا أؤمن بحياة أخرى بعد الموت، نأتي من العدم ونعود إلى العدم(٢).

وليس صعباً أن نجد أثر هذا الإلحاد في جفاف الحياة التي عاشوها، فكوري تايلر تتحدث عن والديها وإخوتها كأعداء، وبدون أي رابطة ود أو رحمة، ومارلين أكثر اتّزاناً حين تذكر أمّها الرائعة ثم تذكر بعفوية كيف أودعتها في دار للمسنّين تقضي فيها بقية عمرها، واختارت هي أن تُنهي حياتها بكأسٍ من السُّمّ شربته بحضور زوجها وأولادها.

إن هذا جزء من وحشة الطريق الـمُظلم الذي انطفأ فيه نور الإيمان، إنَّ مِن أسباب هذا التصور المنحرف لمسار الحياة والموت هو الاحتباس في مقاييس العالم الأرضي الضيّق الذي نعيش فيه، والعمر القصير الذي نعبره، وإن قياس عالم الغيب ومصير الآخرة بمقاييس حياتنا الدنيا

(١) «موت وحياة» لـمارلين يالوم (١١٣ـ١٥٨).
(٢) «في معنى أن نموت» لكوري تايلر (٧٢).

قياس بعيد، فشتّان بين عوالم الآخرة وعالم الدنيا، إن مثل ذلك كمثل الحشرة في جحرها الضيق تراه عالمها وتظنه الكون حولها، ولا تدري عن الأرض بامتدادها وجبالها وبحارها، وأن الأرض كلُّها هباءة في كون رحيب بمجرّاته وكواكبه يحيط بها ولا تشعر به.

وإن الفرق الشاسع بين عالم الدنيا وعوالم الآخرة أشد من الفرق بين عالم جُحر هذه الحشرة وعالم الكون الفسيح حولها[١].

كما أنّ من أسباب ذلك أنّ الدين المحرَّف الذي عرفه هؤلاء الجاحدون لا يتصالح مع العقل، والإله الذي عرفوه من خلال دياناتهم تلك ليس له صفات العظمة والكمال، وإنّما تصفه حكايات مشوّهة تقول عنها كوري تايلر: عرفت بضع حكايات من الكتاب المقدَّس بدتْ لي على مستوى واحد مع الحكايات الخُرافيّة، وإنْ بدتْ أقل إثارةً منها[٢].

إنّ التصورَ الذي قدمته الكتب المحرفة لألوهية الله عَزَّوَجَلَّ يتنافى مع عظمته وتقديسه وكماله المطلق، فالرب الذي يتصارع مع مخلوق من مخلوقاته ليس الرّبّ القدير، والرّب الذي يختفي منه آدم خلف شجرة في الجنة ليس الرّبَّ العليم، والرّبُّ الذي يورث إثم الخطيئة إلى مَن لم يعملها ولم يشهدها ولم يكن موجودا عند حدوثها ليس هو الرّبَّ العادل الرحيم.

والرّبّ الواحد الذي هو في نفس الوقت ثلاثة مغالطة لبدهيات العقل والمنطق.

---

(١) «ما لا تعرف عن الجنة» عمر السعدان (١٠).

(٢) «في معنى أن نموت» لكوري تايلر (٦٣).

ولِذا يعيشون في حَيرة بين الاستجابة لنداء الفِطرة الإيماني والنفرة من التّصوّر المشوَّه للربوبية الذي لا يليق بجلال الرّبّ وعظمته، ولِذا يهربون إلى الإلحاد أو اللاأدرية أو الإيمان الربوبي المجرَّد عن الدين.

وشتّان بين ذاك التصور المتناقِض للربوبية الذي تكرسه المفاهيم المغلوطة والأديان الباطلة، وبين مشاعر العظمة والجلال والتقديس التي تشّع في قلب المؤمن وهو يقرأ في آيات القرآن الكريم معانيَ عظمة الله في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٢، ١٠٣]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤]، وما يورثه ذلك في القلب من هيبةٍ وتعظيم، ومحبّة وإجلال.

وهناك مِن الجاحدين مَن يكون إنكارهم للآخرة هروباً نفسيّاً وليس قناعةً عقلية، فهو لا يريد أن يعيش أزمة التفكير في المصير، ولا تأنيب الضمير بعد كل خطيئة، فيجد المهرب في إنكار البعث والجزاء، وهؤلاء من النَّوع الذي لا يريد أن يعلم، ولا يريد أن يؤمن، وهؤلاء هم الذين تكون حسرتهم مُضاعفةً وعقوبتهم أليمة، يخادعون الله، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

وقد يصرخ إيمان الفطرة في وسط ظلمة الحَيرة يدعو إلى التّوجّه إلى ربٍّ له القدرة المطلقة والإرادة النافذة، وممّن صوّر لحظة اليقظة هذه

«فرانسيس كولينز» الذي نشأ بين أبوين ملحدين، ثمّ عزّز إلحاده بالتأكيد عليه بالنظريات العلمية، ولكنّها لم تُسلمه إلى يقين الإلحاد، ولكنْ إلى حَيرة اللّا أدرية، والتي اكتشف أنه مهربٌ نفسيّ لتجنّب الحجج من الطرفين، وحقيقتها: «لا أريد أن أدري»[١]، وأنّها حالة تعامي أو كما يصفها: «عمى طوعيّ»، ثمّ وجد نفسه في مواجهة مع هذا الصوت الفطري في وجدانه، وهو يعايش المرضى في لحظاتهم الحرجة، وأيّامهم الأخيرة، ورأى كيف يمدّهم إيمانهم بالرّضا والسّكينة، وجاءت هزّة الإيقاظ من عجوز مريضة بالخناق، ومن وسط آلامها سألته: ما الذي تؤمن به، هل لك إله تتوجّه إليه؟. حينها اهتزّت كلّ قناعته الزائفة، وشعر أن الجليد يتصدّع تحت قدميه[٢].

ولكن هذا الإيمان الربوبي وحده لا يحقّق طمأنينةً في الحياة، ولا سكينةً عند الموت، ولا أماناً بعد الموت، فإنّ مجرّد الإيمان بوجود إله فطرةٌ قلبية وحقيقة عقلية، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

ولعلّك تستشفّ فيها نوعاً من الامتنان على الله بهذا الإيمان الرّبوبي، وكأنّما مجرّد الإقرار بوجود الله الخالق هو كمال الإيمان الواجب على هذا الإنسان العاقل الـمُدرِك، الحرّ في إرادته وقراره، وترى شيئاً مِن حال مَنْ وصفهم الله بقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

---

(١) «لغة الإله» لفرانسيس كولينز (٢٣).

(٢) «لغة الإله» لفرانسيس كولينز (٢٨)، و«القلب المؤمن» د. عبد الله الغذامي (٤٦).

ولذا يكون إيمانهم بالربوبية منقوصاً لا يورث تعظيماً لله ولا توجّهاً إليه، وتجد ذلك في تصوّر بعضهم أنّ الله خلق الكون ثمّ أهمله، وأنّه يتعامل مع خلقه بلا مبالاة[١]، تعالى الله عن ذلك.

إنّ الإيمان لا يحقق أثره ومهمته إلّا إذا كان مصحوباً بعبادة الله وحده، والتوجه إليه بالحب والتعظيم، واستشعار قربه وعلمه وإحاطته، واليقين بأنّ الموت ليس هاوية عدمٍ، ولكنه بوابة إلى الحياة الحقيقية الخالدة، والتي نرجع فيها إلى الله، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]. لينال الأخيار ثوابهم المضاعَف من الرّبّ الكريم الرحيم، وينال الأشرار جزاءهم من ربٍّ حكَمٍ عدلٍ لا يظلم مثقال ذرة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وهذا يبيّن لنا عِظَم الجناية في استيراد أزمات العقل الغربي، والتي لا توجد أسبابها في ذهنية المتلقّي المسلم، فالرّبّ كما تصفه الكتب المحرَّفة ويُعرِّف به الكُهّان ليس هو الرّبَ الذي تتوجّه إليه الفِطرة، ويطمئن له القلب، ولِذا فليس غريبا أن يوجد قسٌّ ملحد قضى أربعين سنة من عمره يدعو إلى ربٍّ لم يؤمن به، ولم يكشف عن إلحاده إلا مذكراتُه بعد موته[٢].

(١) «في معنى أن نموت» (٦٥).

(٢) هو الكاهن الفرنسي الملحد جان مسلييه (١٦٧٨-١٧٣٣ م).

رابعاً: الإيمان في استقبال الموت

صحبت بعض مَن واجهوا وداع الحياة إلى أن ودّعوها، ورأيت بعض الصالحين وهم يتهيّؤون للرحيل، فرأيت كيف كان يقينهم بالله ولقائه مُؤنساً لهم، ومدداً لسكينةِ نفوسهم، وطمأنينة قلوبهم، وهم يرون طريقهم بوضوح، وينتظرون مصيرهم بيقين.

كنت عند صديقي أبي أسامة[1] وهو يتلقى من الطبيب خبر أسفه على أن مرحلة العلاج قد انتهت وبقي انتظار الأجل، فلم يرِفّ له جفن، ولم يزدْ على أن قال: الحمد لله. وكان يقول: كيف نخاف الموت والمنقلَب إلى الله؟! ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]. وما نظنّ بربنا إلّا خيرا.

ثم جاءه في المساء أحد الأطباء المعالِجين الكَنَديّين مواسياً يقول له: لقد أسفت للخبر الذي سمعته اليوم، فقال: أشكرك على ذلك،

(١) هو أخي الشيخ عبد العزيز بن محمد الماجد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان حافظاً للقرآن، متوازناً في حياته، مجتهداً في عبادته، توفّي شابّاً في الرابعة والثلاثين من عمره عام (١٤١٧هـ)، رحمه الله رحمة واسعة.

لكني لم آسَف، فقد عشت حياتي التي وُهبَت لي، وعبدتُ ربي بقدر ما أستطيع، وهذا أوان لقائي بربّي الذي كنت أعبده، ولكن تفكرْ أنت بجِدّ في هذه اللحظة التي ستصل إليها والمصير الذي ستنتهي إليه، هل أنت على استعداد لها؟.

ولفت نظري في مذكرات محمد أبو الغيط[١] التي كتبها في آخر رحلته مع السرطان حين قال: لم أؤمن يوماً بعبثية الحياة. وكان يردّد بإيمانه الفطريّ الشهادتين كلما أحس بداية الإغماء.

وفي ما رُوي من حال الصالحين حين حضور الموت مشاهد عاجبة، تبيّن مدى الطمأنينة واليقين في تلك النفوس المؤمنة، لـمّا حضرت معاذَ ابنَ جبلٍ الوفاةُ قال: مرحباً بالموت، حبيب جاء على فاقة، اللهم إنّي كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك[٢]. وكم أعجب من قصص احتضار كثير من الصالحين، حيث ترى رباطة الجأش، وثبات النفس، والأهبةَ للموقف، كحال مسافرٍ أخذ أهمّ أمتعته وجاء الرحلة في موعدها، فهو مسافرٌ إلى الوجهة التي يعرفها، في رحلة قد استعدّ لها، فلا فزع ولا ارتباكَ، ولكنْ يقينٌ وطمأنينةٌ واستبشار.

ورأيت ورأى الناس معي الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يلقي دروسه في آخر أيام حياته وقد استشرى السرطان في جسده، فكان يسارع أنفاس الحياة ليبلِّغ علماً، ويقول خيراً.

---

(١) «أنا قادم أيها الضوء» للأستاذ محمد أبو الغيط رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) «الزهد» لأحمد ابن حنبل (١٠١١).

وشتّان بين مَن يسير في حياته وهو يستشعر علم الله المحيط، وقدرته الغالبة، ورحمته الواسعة، فيعيش حياته وكأنّما يرى الله، لعلمه أن الله يراه، فتتحوّل حياته إلى معاملة مباشرة مع الله، يعبد الله وهو يستشعر رضاه، ويدعوه وهو يستشعر قربه.

كم ستكون الحياة رحبة واسعة حينما تشعر أنك تتعامل مع من حولك وأنت تتعامل مع الله مباشرةً، حينما تتذكرالحديث القدسيّ أن الله يقول لعبده: «**يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**». قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟! يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**». قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟! يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي**». قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: «**اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»[1].

كم ستكون سعة الحياة حينما تشعر أن كل إحسان تضعه في يد محتاج فإنّما تضعه في يد الله، وأنّ كل رحمة بمخلوقٍ ستتلقى بها رحمةً من الخالق.

كم سيكون المستقبل مديداً لاحِباً حينما تشعر أن المنقلَب إلى ربك الذي كنت تعامِله في حياتك صلاةً ودعاءً، وحبّاً ورغبةً، ورجاءً ورهبةً،

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٦٩).

ثم ستنتهي إليه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. كم هي حياة طيبة، ونظرة إلى عاقبة حسنة، ورجاء في الله عظيم! وأين ذلك ممّن لا يرى في الموت إلّا هاويةً مظلمةً يظنّ أنها تنتهي هباءً وعدماً!

خامساً: الاستعداد للموت

إن السلام والسكينة عند استقبال الموت يظفر بها من عاش حياته متحفّزاً لهذا الموعد، مستعدّاً لهذه الساعة، ومن أعظم المحفّزات للاستعداد للموت:

كثرة ذكره في حال الصحة وطول الأمل، ولذا قال ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**»[١]. فذكره مما ينزع عن النفس سُبات الغفلة ويهيِّئ للاستعداد له قبل قدومه، وقال أبو الدرداء: مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ قَلَّ حَسَدُهُ[٢]، فتذكُّر الموت يُطفئ التنافس المحموم على مطامع الحياة وشهواتها، وقال الدَّقاق: من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، ونشاط العبادة، وقناعة القلب[٣].

ومن ذلك زيارة المقابر زيارة معتبِر، قال ﷺ: «**زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»[٤]. وكان رسول الله ﷺ يزور المقابر، ويقول عند زيارتها:

(١) «سنن الترمذي» (٢٣٠٧)، «سنن النسائي» (١٨٢٤).
(٢) «الزهد» لابن المبارك (٢/ ٣٧).
(٣) «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي (١٤).
(٤) «صحيح مسلم» (٩٧٦).

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ وَالْـمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ». وكان يعلِّم أصحابه ذلك ليقولوه إذا زاروا المقابر.

فعندما يقف الإنسان أمام القبور يرى تساوي هذه القبور وتشابهها، فقدْ فقدَ أهلُها كلَّ ما كان يتميّز به بعضهم عن بعض في هذه الحياة، وتساوَوا جميعاً في القبور التي دخلوها وقد فارقوا ألقابهم ومناصبهم وأموالهم.

يقول مالك بن دينار: مات أمير العراق بشر بن مروان، فدُفن، ثم مات عبد أسود فدُفن إلى جنبه، فمرَرتُ بقبريهما بعد ثلاث فلـمْ أعرف قبر أحدهما من صاحبه[1].

كما يتذكّر مَن يزور القبور أن مَن هم تحت الأرض كانوا يوماً فوقها، لهم أعمالهم، ولهم آمالهم، ولهم أمنياتهم، فماذا سيتمنون لو واتَتْهم الفرصة للرجوع يوماً إلى الحياة؟

لا شك أن أولوياتهم وأمنياتهم ستتغير، وستكون للحياة قيمةٌ أخرى، ولِـما يُعمل فيها هدف آخر، عندها يقول كلٌّ منا لنفسه: إنّ ما يتمناه هؤلاء لو عادوا إلى الحياة هو ما يمكنني عمله الآن وأنا اليوم في الحياة.

فمَـن رأى قبراً فإنما يرى واعظاً يعظه، ومذكِّـراً يذكّره، وإن كان القبر سـاكتاً فإنه ناطق بلسـان الحال، ويصدح بما يكون لك في المآل، وكأنما يخاطبـك ويبيّن لـك عاقبتك، ويقول لـك: كنتُ حيّاً مثلـك وقد متُّ،

(١) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١١٣).

وكذلك أنت حيّ وستموت، والسعيد مَن وُعِظ بغيره، وإنما هي ساعة وستصل إليها وإن طال المدى، وامتد العمر واتصلت الأيام[١].

إن رؤية القبر زيادة في الشعور بقيمة الحياة، فالقبر فم ينادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدة لو صُرفت كلها في الخير ما وفت به، فكيف يضيع منها شيء في الشر أو الإثم؟! لو ولد الإنسان وشبَّ واكتهل وهرم في يوم واحد، فما عساه كان يضيِّع من هذا اليوم الواحد؟ إن أطول الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصر من يوم.

وإذا نسي الأحياء كلمة الموت بسبب غرور أو غفلة، بقي القبر مذكِّراً بالكلمة، شارحاً لها بأظهر معانيها، داعياً إلى الاعتبار بمدلولها، مبيناً أن الأمر كله لهذه النهاية.

القبر كلمة الأرض لمن ينخدع فيرى العمر الماضي كأنه غير ماضٍ، والعمر الباقي كأنّه غير نافد، فيعمل في إفراغ حياته من الحياة بما يملؤها من رذائل وآثام.

ينادي القبر: أصلحوا عيوبكم، فلا زال لديكم وقت لإصلاحها، فإنها إن جاءت إلى هنا كما هي بقيت كما هي إلى الأبد[٢].

وممّا يذكّر بالموت وما بعده: تشييع الجنائز وصحبتها إلى حيث تُوارى في قبورها، فرؤية تسليم الميت إلى قبره، وإهالة التراب عليه، ثم رجوع الناس عنه، واستئنافهم حياتهم بعده، كُلُّها مشاهد مؤثرة لكل يقِظٍ معتبر يرى فيها النهاية التي سينتهي إليها والمصير الذي سيصير إليه.

---

(١) «العاقبة» للإشبيلي (٢٠٤).

(٢) باختصار من مقالة «وحي القبور» لمصطفى صادق الرّافعي(٢/ ١٢١).

إن الذين يسيرون مع الميت هم أموات الغد يشيّعون أموات اليوم، حينها نستشعر قرب الموت منّا حتّى كأنما نسير ونحن نحمل نعوشنا على أكتافنا[١].

ومما يذكّر بالموت الاعتبار عند الاستيقاظ من النوم، فالنوم موت صغير، كما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، ولذا كان النبي ﷺ يقول عند الاستيقاظ من النوم: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[٢]. فيستشعر المستيقظ أنه قد وُهبتْ له حياةٌ جديدة، وأن هذا اليوم هو أول يومٍ من بقية عمره، وأنه استيقظ فاستقبل الحياة وسيأتي يوم يستقبله فيه الموت.

ومن الاستعداد للموت المبادرة بما ينبغي عمله للآخرة، بحيث لا يفاجئنا الموت وقد بقي ما نريد عمله، إن أعظم حسرات الموت تكون عند الإحساس بعدم القدرة على فعل أعمال الخير المؤجلة، وهي تلك التي يهتف بها أولئك المسوّفون في حسرة عند مواجهة الموت: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقد حدثنا نبينا ﷺ عن هذه الحسرة المريرة على هذه النوايا المؤجلة،

---

(١) «لغز الموت» للطبيب مصطفى محمود (٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١٢).

والقرار اليائس في الوقت الخطأ، فقد جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرا؟. قَالَ ﷺ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ**»[1].

ولن يندم أحد عند الموت على أنه لم يضف مليوناً إلى المليون التي في رصيده، ولا على أنه لم يملك سيارة أفخم من سيارته، ولا على أنه لم يسافر إلى بلد كان يتمنى أن يسافر إليه، سوف يندم فقط على عمل خيرٍ كان متاحاً له فأجّله، وعلى مال كان سيُنفقه في برٍّ فبخل به، وعلى ساعةٍ كان سيقضيها في عملٍ صالح فذهبت في غفلة.

ولن ينظر إلى حياته الماضية، ولكن سينظر إلى حياته المقبلة، ويعلم أنها هي الحياة الحقيقية، ولِذا يقول مَن فرّط فيها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. لقد علم حينها أن حياته هي التي سينتقل إليها، وليست الحياة التي غادرها.

وما أسعد أولئك الذين يوافيهم الموت وقد أنجزوا كل نواياهم الخيّرة، وقدّموا أعمالهم الصالحة! وكم أعجبتني مثل هذه العبارات الحكيمة:

كلّما عشت حياتك بطريقة صحيحة أصبحت أكثر استعداداً للقاء الموت وتقبّلاً له.

حاول أن تجعل حياتك سعيدة حافلة، واعمل فيها لآخرتك التي ستنتقل إليها، وعندما يحين أجلك لا تكن كأولئك الذين تملأ خشية

---

(١) «صحيح البخاري» (١٤١٩)، «صحيح مسلم» (١٠٣٢).

الموت قلوبهم، وعندما تحين ساعتهم يبكون ويطالبون بمهلة أخرى ليحيَوا بطريقة مختلفة عما عاشوه.

لا تدع للموت شيئاً يأخذه سوى صندوق فارغ[١]. مُتْ فارغاً[٢]. وأنجِز نوايا الخير وعزائم العمل الصالح، واسبق بها الموت، فلا يصلك إلا وقد فرغت منها، وتلقّيته وقد أنجزت أعمالك، وحقّقت آمالك، وفرغتَ لِما أمامك.

وإن الاستعداد للموت لا يعني هجر الحياة، ولا إطفاء بهجتها، وتجنّب متعها، فإن الله أمر رسله بالاستمتاع بطيباتها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وحكى الله نصيحة الصالحين من عباده: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وكان من حكمة الله ورحمته أن حجب عن الخلق موعد آجالهم وساعة موتهم، حتى تمتدّ آمالهم وتعمر حياتهم، ويطيب عيشهم، قال مُطرِّف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي، ولكن الله مَنَّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنّؤوا بعيشٍ، ولا قامت بينهم أسواق[٣].

ولكن ذكر الموت والاستعداد له يعني التوازن في العمل بين العمر الدنيوي والحياة الآخرة الخالدة، ولن يحول ذلك بيننا وبين طيبات

---

(١) «مسألة موت وحياة» (٣١١).
(٢) «مت فارغاً» كتاب لتود هنري.
(٣) «قصر الأمل» لابن أبي الدُّنيا (٣٩)، «الفنون» لابن عقيل (٢/ ٦٤٨).

الحياة ولذائذها، ولكن ستكون اللذة بها مضاعفة، والغبطة بها كبيرة، حينما تتعاطاها مستشعراً أنها هباتُ الله ونعمه وعطاياه، «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[١]. وسنجد اللذة في لقمة الطعام، ورشفة الماء، ونشوة الحب، وقوة الصحة، وأمان السكن، وأُلفة الصديق، وجمال الكون، ثم نشكر مَن وهبنا ذلك، وجعلنا نتذوق لذّته، ونعيش بهجته، ونرى جماله، كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «**الْحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي**»[٢]. فانظر كيف وجد لهذه النعم المعتادة لذاذة وامتناناً يستوجب تجديد الشكر.

بل إن المعاناة والشدة يتلقاها مَن يؤمن بالآخرة بسكينةٍ ورضا، ويتذكّر عند كل شدة كم غمرتْه نعم الله في ما مضى من عمره، وكم يُدّخر له من الأجر على صبره ورضاه، فيجدّد لله الحمد والرضا.

لك الحمد مهما استبدّ البلاء ومهما استطال الألم

لكَ الحمدُ إن الرزايـا عطاء

وإن الـمَصيبات بعض الكَـــرَم

ألم تُعطني أنت هذا الظلام؟

وأعطيتني أنت هذا السّحر

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٣٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧١٥).

فهل تشكر الأرض قطر المطر

وتغضب إن لم يجدها الغمام؟

لك الحمد، إن الرزايا ندى

وإنّ الجراح هدايا الحبيب

أضمُّ إلى الصدرِ باقتــها

هداياكَ في خافقي لا تَغيــب

هداياكَ مقبولــةٌ... هاتِها[1]

(١) من قصيدة «سفر أيوب» للشاعر بدر شاكر السيّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

سادساً: ذقت طعم الموت

كنت ممتلئاً صحة، أكاد أتوثب من النشاط توثباً، أحسّ كأن الأرض تدفعني عنها دفعاً. وكان الموت بعيداً عن فكري، والموت -أبداً- أبعد شيء عن أفكارنا، وإن كان أقرب شيء منا، نتناساه وهو عن أيماننا وشمائلنا، نشيّع الجنائز ونمشي معها ونحن في غفلة عنها، ونرى مواكب الأموات تمر بنا كل يوم فلا نفكر ولا نعتبر، ولا نقدّر أننا سنموت كما ماتوا، ومات من كان أصح منا صحة وأشد منا قوة، وأكبر سلطاناً، وأكثر أعواناً، فما دفعت عنه الموتَ - لَمّا جاءه - صحتُه ولا قوته ولا حماه منه سلطانه ولا أعوانه، نعرف بعقولنا أن الموت كأس سيشرب منها كل حي، ولكننا ننسى هذه الحقيقة بشعورنا وعواطفنا وتحجبها عنا شواغل يومنا وتوافه دنيانا، يقول كل واحد منا بلسانه: إن الموت حق وإنه مقدر على كل حيّ، ويقول بفعله: لن أموت، لقد كُتب الموت على كل نفس إلّا نفسي، فلا يزال في العمر فسحة لي دائماً ولن يأتي أجلي أبداً، ثم ذقت طعم الموت ورأيت طلائعه، هكذا فجأة على غير توقع ولا انتظار، فأين كان ذلك؟ وكيف كان ذلك؟

كان ذلك على شاطئ البحر في بيروت، وكان البحر هائجاً يرمي بأمواج كالكُثبان، وكنت أسبح على الشاطئ السباحة التي أعرفها،، فإذا تعبت خرجت أستمتع بالشمس والهواء.

ثمّ عاودت الدخول في الماء وأطلت البقاء فيه، وما أحسست أني أتزحزح شبراً فشبراً حتى بلغت موضعاً من البحر عميقاً، علمت بعدُ أن فيه تياراً يتحاماه السباحون القادرون، فكيف بمن لم يكن يتقن من السباحة إلاّ فن الرسوب؟

وحاولت الوقوف فإذا أنا لا أجد الأرض الصلبة من تحتي، وحاولت أن أرفع رأسي فأنظر فإذا أنا لا أجد الهواء ولا أبصر شيئاً، وأحسست الماء الملح قد تدفق على فمي وأنفي، فأنا لا أملك إلاّ أن أبلعه وأنشقه. وبدأت أحسّ آلاماً لا تُصوَّر ولا توصَف، وصار كل همي من دنياي أن أجد نسمة واحدة من الهواء فلا أجدها، فقلت: هذا هو الموت، هذا هو الموت الذي أفر من الكلام فيه والحديث عنه، والذي أراه بعيداً عني لم يحِنْ حينُه ولم يَدْنُ موعدُه، لذلك كنت أؤجل التوبة من يوم إلى يوم، أقول: إذا بلغت سن الشباب تبت، فلما بلغتها قلت: أتوب في الأربعين، فلما جاوزتها قلت: أنتظر حتى أتم بناء الدار، فلما أتممتها قلت: أتوب وأتفرغ إلى الله إذا بلغت سن التقاعد... كأني أخذت على مَلَك الموت عهداً أن لا يطرق بابي حتى أبلغ سن التقاعد، فها هو ذا قد جاء على غير ميعاد!

وصَغُرَت الدنيا في عيني، إذ كيف ينظر إلى هذه الدنيا من أيقن بالموت؟

لقد امّحَت (والله) صورة الدنيا كلها أمامي. وما لي وللدنيا ولم يبقَ لي فيها إلاّ لحظات معدودات، أنا أتجرع فيها ثمالة كأس الآلام؟ لم يبق لي منها ما يغريني بها، حتى الأهل والولد شُغلت بنفسي عنهم.

وازدحمت عليّ الخواطر فيما أفعله، فحاولت التشهد والتوبة أولاً، فلم أستطع النطق بشيء مما كان في فمي من الماء، وازدادت عليّ الآلام ولكنها لم تقطع خواطري، وكان ذهني في نشاط عجيب ما أحسست مثله عمري كله، وفاجأني الموت كما يفاجئ الامتحان التلميذ المهمل.

فكيف بالامتحان الأعظم الذي ما بعده إلاّ النعيم الأبدي في الجنة، أو الشقاء الطويل في النار؟!

وعرضت عملي فلم أجد لي عملاً من أعمال الصالحين، فلا أنا من أهل المراقبة الذين لا يغفلون عن الله طرفة عين، ولا أنا من المتعبدين الذين يقومون الليالي الطوال والناس نيام ويناجون ربهم في الأسحار، وما أنا من المتقين الذين يجتنبون المحرمات... ما أنا إلاّ واحد من الغافلين المذنبين، إي والله، فبِمَ أقدُمُ على الله؟

ونظرت فإذا كل الذي ربحته من عمري لحظات، لحظات كنت أحسّ فيها حلاوة الإيمان وأخلص فيها التوجه إلى الله، تقابلها عشرات من السنين كنت سابحاً فيها في بحار الغفلة تائهاً في بَيداء الغرور، أحسب -من جهلي- أن الأيام ستمتدّ بي، لم أدرِ أن العمر ساعات محدودة وأن ذلك هو رأس مالي كله، فإن أضعته لم يبقَ لي من بعده شيء.

وذكرت حديثاً كنت حفظته في صباي: «**اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ،**

وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[1] وندمت على أنْ لم أكن وضعته في صدر مجلسي واتخذته منهجاً لحياتي، ولكني لم أعرف -مع الأسف- معناه ولم أدرك حقيقته إلاّ عندما انتهت حياتي.

وفكرت فيما كنت أكابد من ألم الطاعة، فإذا الألم قد ذهب وبقي الثواب، ونظرت فيما استمتعت به من لذّة المعصية، فإذا هو قد ذهب وبقي الحساب، فندمت على كل لحظة لم أجعلها في طاعة.

ونظرت فإذا المقاييس كلها تتبدل ساعة الموت، وإذا كل ما كنت أحبه وأنازع عليه قد صار عدماً، وإذا أنا لم آخذ معي شيئاً، بنيت داراً فما حملت معي منها حجراً، واقتنيت مالاً فما كان لي منه إلاّ ما ظننت من قبل أني خسرته، وهو ما أخرجته لله.

وعرفت لذائذ الحياة كلها، فما الذي بقي في يدي وأنا أموت غرقاً من لذائذ الحياة كلها؟

وطغى عليّ ألم الموت ولم يعد في طَوقي أن أفكر، فتوجهت إلى الله وتصورت كرمه وعفوه، وكان يغلب عليّ الأمل وحب الحياة فأضرب بيديّ ورجليّ وأرفع يميني أشير بها، ثم يدركني اليأس فأسلم أمري إلى الله.

وقد خُيِّل إلي أني بقيت على ذلك ساعات، ولكن تبين لي من بعد أني لم ألبث أكثر من دقيقتين... في دقيقتين أحسست هذه الآلام ومرّت في ذهني هذه الخواطر!

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١١٨٣٢) عن عمرو بن ميمون مرفوعاً مُرسَلاً.

ثم لما خارت قواي وأوشكت أن أغوص فلا أطفو أبداً خُيِّل إليّ أني أسمع أصواتاً تناديني، وأحسست بيدي تمسّ شيئاً صلباً أدركت أنه طرف زورق، ففرحت فرحة ما فرحت قط مثلها، وشعرت أني أُرفع إلى الزورق، ثم غبت عن نفسي وهم يمسكون برجليّ لأخرج بعض ما في جوفي من ماء البحر.

لقد خرجت بنفس جديدة، واتعظت موعظة أرجو أن تدوم لي، وعرفت قيمة الحياة وحقيقة الموت. ونحن لا نعرف مِن الموت إلاّ ظاهره دون حقيقته.

وما الموت إلاّ انتقال إلى حياة أرحب وأوسع، إلى النعيم الدائم أو الشقاء الطويل.

فإذا كان الموت سفرة لا بد منها، فالعاقل من تهيّأ لها وذكرها دائماً كيلا ينساها، ونظر في كل شيء، فإن كان مما يستطيع أن يحمله فيها حرص عليه، وإن كان مجبراً على تركه وراءه زهد فيه وانصرف عنه.

وبعد، فإني أخاف -والله- أن لا أجد مِيْتة أكون فيها حاضر القلب مع الله، مستشعراً التوبة، متصوراً الدار الآخرة، كما كنت هذه المرة[1].

(١) باختصار من مقالة «في لجّ البحر» للشيخ علي الطنطاوي، من كتاب «حديث النفس» (٢٨٣).

سابعاً: الإنسان والبحث عن معنى

قرأت كتاب «الإنسان والبحث عن معنى» لفيكتور فرانكل وهو يروي تجربته في سجون المحرقة النازية، وهي تجربة مؤلمة لا يشبهها إلا ما حكاه الناجون من سجن تدمر في سورية، فتحدَّثَ عن هذه التجربة، وعن السبب الذي أمدّه بالصمود في حين كان مَن حوله يتساقطون أو يتدافعون إلى الموت، فأكّد على أن البحث عن معنى للحياة والتطلع إليه هو ما يمدّه بالقوة، وأنّ الخاصية المميزة للإنسان أنه يستطيع أن يحيا بواسطة تطلعه إلى المستقبل، وبهذا يكمن خلاصه من وجوده في أحلك الظروف[١].

وأنّ من يفقد ثقته في مستقبله يكون قد حكم على نفسه بالفناء[٢].

وأن من يعرف سبب وجوده والغاية من هذا الوجود يكون قادراً على تحمله بكل شكل من الأشكال[٣].

---

(١) «الإنسان والبحث عن معنى» لفرانكل (٨٣).
(٢) «الإنسان والبحث عن معنى» لفرانكل (٨٤).
(٣) «الإنسان والبحث عن معنى» لفرانكل (٨٨).

وأنّ سعي الإنسان أن يجد معنى لحياته هو القوة الدافعة للإنسان[١].

وأنّ الإنسان يحتاج إلى شيء يعيش من أجله[٢].

وتحدّث عمّا سمّاه الفراغ الوجودي، وهو فقدان الشعور بأنّ الحياة ذات معنى، وذكر من أمثلته عُصاب يوم الراحة، وهو نوع من الاكتئاب يصيب الأشخاص الذين يصيرون واعين بما ينقُص حياتهم من مضمون حينما ينتهي ازدحام مشاغل الأسبوع، فيواجهون في يوم الإجازة أنفسهم، ويصبح الفراغ داخل نفوسهم جليّاً.

وبيّن كيف يلجأ كثيرون للتعويض عن إرادة المعنى المـُحبَطة بإرادة المال، أو إرادة اللّذّة، أو الإدمان أوالانتحار[٣].

ولاحظت أنّ فرانكل تعمّد أن يصف هذا الهدف الذي يتوجّه إليه الإنسان بوصفٍ عامٍّ مُجمَل وهو «المعنى»، والذي يمكن أن يحدده كل إنسان حسب اهتمامه، فقد ينظر إليه في ابنه الذي يربّيه، أو كتابه الذي يؤلّفه، أو منزله الذي سيسكنه، أو الشجرة التي يزرعها، أو الحيوان الذي يعيش معه، ونحو ذلك من مآرب الحياة، وعجبتُ من ضآلة هذه الأهداف وهشاشة هذا المعنى، وقارنت ذلك بحياة المؤمن بالله الموقن بلقائه، كيف يتسع عمره للحياة ولما بعدها، كيف ينظر إلى الموت على أنّه بداية الحياة الحقيقية، وكيف يعيش حياته وهو ينظر إلى الآخرة كحقيقة يقينية لا شكّ فيها، فهو يأملها، ويعمل لها.

---

(١) «الإنسان والبحث عن معنى» لفرانكل (١٠٤).
(٢) «الإنسان والبحث عن معنى» لفرانكل (١٠٥).
(٣) «الإنسان والبحث عن معنى» لفرانكل (١١٥).

إنه لا يعيش قلق البحث عن المعنى، فأسئلة الحيرة أجاب عنها إيمانه وحسمها، فالطريق واضح، والمهمّة محدّدة، وإنما يلح السؤال في البحث عن المعنى عند مَنْ لم يستجبْ لنداء الفطرة، ولم يستمع لخطاب الوحي، فهو في متاهة الحَيرة، لم يجد معناه، لم يحدد هدفه، ولم يعرف وظيفته. أمّا مَنِ استجاب لنداء الفطرة، واستمع لخطاب الوحي الرباني فإن المعنى واضح من غير أن يدخل عناء البحث عنه، إنه يعلم أنه أتى إلى هذا الوجود بغير قرار منه، وسيغادره بغير قرار منه، وفي ما بين حضوره ومغادرته هو يعيش فترة التحضير لحياة الخلود، فهذا العمر المحدود هو ميدان العمل، والجزاء هناك في دار الجزاء، وعُمرِ الخلود، فهو في حياته متعاملٌ مع الله بالعبادة، وبعد مماته منتهاه إلى الله ليتلقّى جزاءه، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

وتقرأ هذا اليقين المطمئن في وصايا المسلمين التي يكتبونها وهم على مشارف الموت، أو حال التّهيُّؤ له، فتقرأ الكلمات التي تتكرّر في وصاياهم: «هذا ما أوصى به عبد الله وابن عبده، بأنّه يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وأنّ الجنة حقّ، والنار حقّ، وأن الله يبعث مَن في القبور».

إنّ هذا الذي يكتبه عند موته هو إيمانه الذي صحبه في حياته، ولِذا فهو لا يبحث عن المعنى الأعلى، فهو واضح إلى درجة التألّق، وهو الهدف الأكبر الذي يقود جميع الأهداف.

وهذا الإيمان اليقيني الذي يواجِهُ به الموتَ هو إيمانه الذي واجه به أحوال الحياة.

فإذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وإذا واجهته شدّة قال: حسبنا الله ونِعم الوكيل.

وإذا عزم على مهمّة قال: لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وإذا أصاب نعمةً قال: الحمد لله، هذا من فضل ربّي.

وإذا حضره الموت قال: لا إله إلا الله، عليها نحيا وعليها نموت.

ولذا فإننا عندما نستورد إشكالية البحث عن المعنى إلى ساحة المؤمنين فإننا نورد سؤالاً غير واردٍ، ونحلّ مشكلةً غير موجودة، وننقل إلى الذهنية المطمئنّة بإيمانها أسئلة الذهنية الحائرة واستشكالاتها القلقة.

ثامناً: في ساحة سراييفو

في مدينة سراييفو مررت بساحة السوق وقد رُسم في ناحية منها على الأرض صفحة شطرنج ضخمة، بحيث يتم تناوب اللاعبين عليها وقوفا، وجمهور المتابعين يقفون متحلّقين حولهم، وأكثرهم من أصحاب الرؤوس الصّلعاء والشعور البيضاء الشعثة، والوجوه المتجعّدة الشاحبة، وهم ممّن تقاعدوا من العمل ومن الحياة، وصاروا يقضون وقتهم حول هذه الساحة التي تعمل (٢٤) ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع، وتسمع فيها تبادل الشتائم الـمُنقرضة، وقصص الأفلام القديمة، وأسماء قدماء اللاعبين الذين كانوا أبطالاً، ثم شبعوا موتاً.

وقفتُ أنظر إليهم، وأخبرني مرافقي أن هؤلاء المتقاعدين يقضون وقتهم هنا، هرباً من الملل والضيق، وقتلاً للفراغ، وانتظاراً للموت.

وعندما تجاوزتهم دخلت مسجد «خسرو باشا» التاريخي والذي كان قريباً من هذه الساحة، وذلك قبل أذان الظهر بنحو ساعة فرأيت شيخا طاعناً في السنّ نظيف الهيئة عليه سكينة وبهاء، وقد نشر مصحفاً كبيراً وأكبّ عليه

بما بقي من نور عينيه، وهو يقرأ وكأنّما يعرج إلى السماء، ويبدو أنه لا يشعر بما حوله لِشدّة استغراقه في لذّته الرّوحيّة.

ورسخ المشهد في ذاكرتي وأنا أقارن بين أولئك الذين يشعرون بعد التقاعد أن لديهم فائضاً من العمر يتخلصون منه بهذه الطريقة.

أما هذا الشيخ فقد قضى عمره في زمن الشيوعية قابضاً على دينه كالقابض على الجمر، ولمـّا تقاعد شعر أن لديه بقية ثمينة من عمره ينبغي أن يكسبها، وشعرتُ أنه ينظر إلى ساعات عمره وكأنّها خزائن فارغة لا بدّ أن يملأها بعمل خيرٍ يصحبه بعد مغادرته هذه الحياة.

وتذكرت حال أحد كبار السّنّ الصالحين، والذي توفّي فوجد أبناؤه في مصحفِ تلاوتِه ورقةً يكتب فيها جدول ختماته للقرآن الذي كان يعيش معه ويعيش به، فيكتب تاريخ بداية التلاوة وتاريخ نهاية ختمها، إنّه يشعر أنّه مع مشاريع متجددة مع بداية كل ختمة ونهايتها، وقد جمع لها فراغ وقته من العمل، وفراغ قلبه من الهموم، فجعل قراءة القرآن عمله وهمَّه وهمّته.

يا الله! أيّ معنى يجده هذا وذاك في حياتهم! إنّه يعي ماذا يعمل، ويعلم إلى أين يسير.

وأي معنى يجده أولئك الذين يشعرون أن بقية أعمارهم الفارغة هشيم يُحرقونه بهذا العبث المُمِلّ!

تاسعاً: رهاب الموت

الذي تكون فكرته عن الحياة خاطئة ستكون فكرته عن الموت خاطئة أيضاً.

الموت ليس فناءً ولا عدماً، بل هو انتقال من ضفة إلى ضفة، ومن عالم إلى عالم.

تذكُّر الموت إذا كان معتدلاً ليس شيئاً محبطاً أو سلبيّاً، بل يعيننا على استثمار الحياة بشكل أفضل، وعلى تجاوز التوافه، وعلى التسامح.

يمكنك أن تعامل الموت كأستاذٍ علَّمك أن الحياة وجهٌ آخر للموت، وأن الموت وجهٌ آخر للحياة، وأن الشباب موت الطفولة، والشيخوخة موت الشباب، وأن الموت جسرٌ للخلود، وأنت من مرحلةٍ إلى أخرى تصعد السلم دون شعور.

يمكنك الآن أن تتصالح مع الموت، وأن تستعدّ لاستقباله، ولا تجعل منه شبحاً يطاردك.

الموت يذكرني بثلاثة أشياء:

أولاً: ما الذي سألقى الله به؟

ثانياً: ما الأثر الذي سيبقى بعدي؟

ثالثاً: كيف أعيش سعيداً ومنهجيّاً بقية عمري؟

حين أرحل، أتمنى أن أكون قد رتَّبت أولوياتي بشكلٍ أفضل.

حين أرحل، أتمنى أن أكون قد قلت الكلمة الأخيرة[١].

والفزع من الموت ليس أمرا مرغوبا ولا مأمورا، بل يتذكر المسلم الموت ليرعوي عن الظلم والإثم، ويتدارك ما فاته من بر وإحسان، ويأخذ الحياة مأخذ الجد والحقيقة، وكلُّ تذكر للموت لا يورث عملا صالحا هو من تحزين الشيطان وتوهينه، وإنّ الخوف الـمُفرَط من الموت سببه عدم فهم الموت بشكل صحيح.

سيكون الموت مريحاً حين تستقبله وقد أكملت الاستعداد له، فليس في ذمّتك حقٌّ لأحد لم تقضه تخشى أن يطالبك به، وليس في نيّتك مشروع خير كنت تريد عمله ولكن بخلت أو سوّفت فأفلتت الفرصة، ليس لديك خطيئة لا زلت مصِرّاً عليها، مع أن الوقت كان متاحاً لك للتوبة منها.

حينما تلقى الموت وقد تخفّفت من هذه الأحمال فإن الموت يصل إليك وكأنَّه رحلة، قد استعددت لها، وأتيت إليها في موعدها، أخذت معك كلَّ ما تحتاجه فيها، وتركت وراءك كلَّ الأثقال التي لا تحتاجها.

---

(١) من حلقة «حين أرحل» من برنامج وسم للشيخ سلمان العودة.

أمّا الموت الفاجع فهو ذاك الذي يصل وكأنّه مفاجأة غير منتَظرة، يدرك الإنسان وهو غافل عنه لم يستعدّ للقائه، ولم يجعله في حسابه، بل كان يفرّ من مجرد التفكير فيه، فيُعرض عن تذكّره وذِكره، فإذا جاء فلا مفرَّ ولا خلاص، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩]، لقد كنت تَحيد وتُعرض وتتغافل، وها أنت تصل إلى خط النهاية، وتُباغتك سكرة الموت وأنت في سكرة الحياة.

إن الفاجعة أن يكون الذي يوقظ الغافل من غفلته هو الموت ذاته، فتعظُم الحسرة أنه لم يُصلح أخطاء الحياة، ولم يزدد منها من صالح العمل، ولكنه قد وصل إلى الساعة الحرجة التي لا يمكن زحزحتها؛ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولكنّ وقت ذلك قد فات، وجاء القرار متأخِّراً جدّاً.

وإنّ الموت المؤلم الحقيقي هو أن نموت قبل الموت، أن نموت ونحن أحياء، وذلك أن نعيش بلا هدف ولا إنجاز، أو أن نكون بعيدين عن الله سبحانه، فلا نظفر بلحظات تعبّد ومناجاة تقرّبنا منه قبل أن ننتقل إليه.

عاشراً: كشف أستار الموت

إن أيّ بحث عن الموت وما بعده بعيدا عن نور الوحي الرباني هو تخبطٌ في متاهةٍ مُظلمة، ونهايته عمًى وحَيرة، فما بعد الموت حياة أخرى ليس في ما عشناه ما يُشبهها فتُقاس عليه، بل هي انتقال إلى عالمٍ آخر وحياة أخرى لا يمكن معرفتها بما نعرف، ولا علمها بما نعلم، وأي محاولة للتعرف عليه بعلوم البشر وتجاربهم وفكرهم ونظرهم هو تخرّصٌ وتخمين، واتباع لأوهام الظنون، ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٠-١٢].

ومن حالات التخرّص هذه البحثُ في حالات الموات، أو ما سُمّي بحالات الموت السريري المؤقت[1]، والتي يروي مَنْ مرّوا بها تجربتهم على أنّها حالة من حالات الحياة بعد الموت، ولكن ما حصل لا يُعتبر موتاً حقيقيّاً، فإن الموت لا رجعة منه، ولن يعود أحد إلى الدنيا بعد الموت، كما قال ربنا: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١].

(١) يُنظر كتاب «الحياة ما بعد الموت» للدكتور ريمون موري، والذي جمع فيه حالات من هذا النوع، وتتبّع ما روى فيها أصحابها.

ولا يُستثنى من ذلك إلا ما ورد ذكره في القرآن معجزةً واستثناءً مثل إحياء الموتى لموسى ولعيسى ونحوها، وأمّا ما يرويه مَن يظنون أنهم عادوا من الموت إلى الحياة فلا يَعدُو أن يكون تهيّؤات وانفعالات نفسية عابرة، وليست من عالم الآخرة في شيء.

ولكنَّ تتبعها ودراستها يكشف اللهفةَ لمعرفة أحوال الحياة بعد الموت، ومحاولةَ التماسها ولو في مثل رؤى الغيبوبة هذه، ولكنه ضياع في متاهة الظلام، بعيداً عن حقائق العلم ويقينيّات الوحي.

إن لحظة الاحتضار وما بعدها غيب مستور عن مشاهدتنا وعِلْمِنا، وهو من حالات العجز البشري أمام قَدَرِ الله النافذ، حيث ينزل الموت بالإنسان وحوله أطباؤه وأقاربه وأصدقاؤه وأحبُّ الناس إليه في حالة عجز واستسلام حتى يستردّ الأمانةَ من أودعها، وترجع الروح إلى مَن خلقها، ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

إن الموت أعظم حدثٍ سيمرّ بنا في ترتيبٍ ليس من صنعنا، وهو بوابة الحياة الأخرى الحقيقية، وسوف يواجهها الإنسان وكأنّه انتقل من الوهم إلى الحقيقة، ولِذا قيل: النّاس نِيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا[1].

وقد عُنِيَ القرآنُ بمشاهد الحياة الآخرة فذكرها وجلّاها وكرّرها، مفصَّلةً تارةً ومختصرةً أخرى، حتى كأنها مشاهد ماثلة أمامنا

(١) «القلب المؤمن» (٨٣).

نرى دهشـــتها وذهولها، ونحس شـــدتها وكربها، ونرى منتهاها وعاقبتها، فلم يعـــد ذلك العالَم الآخر الذي وُعِدَه الناس موصوفاً فحسْـــب، بل عاد مصوَّراً محسوســـاً، وحيّاً متحرّكاً، وبارزاً شـــاخصاً، حتى كأن الآخرة هي الحاضرة، والدنيا هي الماضية، وعاش المســـلمون وكأنما يعيشـــون ذاك العالَم الذي ســـيصيرون إليه، رأوا مَشـــاهدَه، وتأثّروا بها، فخفقت قلوبهم تارةً، واقشـــعرّت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرّة، وعاودهم الاطمئنـــان أخرى، فكأنّما لفحهم من النّار شُـــواظ، ورفّ إليهم من الجنّة نســـيم، فباتوا يعرفون هذا العالَـــم تمام المعرفة، ومعرفة هـــذا العالَم من خلال القرآن بســـيطة بلا تعقيد، واضحةٌ بلا غموض، موت وبعث، ونعيم وعذاب، فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم، وأمّـــا الذين كفروا وأجرموا فلهم النار بما فيها من عذابٍ أليم، ولا اختلال هناك في ميزان العدل الإلهي، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وبجمع الآيات الكريمة الواصفة لمراحل هذه الرحلة الغيبيّة تتجلى لنا حقائق الغيب الذي نؤمن به ونستعد له كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

وفي هذا الكتاب الذي بين يديك وصفُ القرآنِ لرحلة الحياة بعد الحياة، يصفها ويخبر عنها الـربّ العظيم ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، فنرى ما سوف نراه،

ونعايش ما سوف نعيشه، ويتجلى لنا المستقبل حاضراً محسوساً، وهذا الوصف القرآني دقيق غاية الدّقّة، مفصَّل غاية التفصيل، يصف مشاعر النفس في أعماقها، وحديثها إلى ذاتها، ويصف المشهد حولها، حتى كأنما نعيش هذه الأحاسيس ونرى هذه المشاهد وفي كل ذلك موعظة وذكرى، وإحياء للقلوب حتى تنظر كل نفس ما قدمت لغد.

جعلنا الله جميعاً ممّن: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

الفصل الأول: اليوم الآخر

أولاً: الموت

ثانياً: حياة البرزخ

ثالثاً: البعث بعد الموت

رابعاً: وصف القيامة والحساب

خامساً: لا ظلـمَ اليوم

أولاً: الموت

جاء ذكر الموت والتذكير به في آيات كثيرة، وأهم ما يُذَكِّرُ به القرآن أن الموت ليس فناءً، ولكنَّه نهاية حياة مؤقتة قصيرة، وبدايةُ حياة خالدة طويلة، نهاية اختبار وبداية جزاء، وأن الموت بداية الحياة الآخرة التي يعيشها الإنسان جزاءَ ما عمل في هذه الحياة الدنيا، ولِذا ذُكر الموت في القرآن موصولاً بالبعث في الآخرة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وساعة مواجهة الموت هي اللحظة التي تظهر فيها الدنيا على حقيقتها، ويأخذ ما فيها من متاع ومال وجاه حجمَه الحقيقي، وينظر الإنسان إلى الدنيا وهو مُدْبِرٌ عنها غير نظرته لها وهو مستغرقٌ فيها، ويشعر أنَّ كل ما كان يتشبَّث به قد أفلت منه، وكلُّ ما كان يملكه قد زال عنه، فتتغيَّر نظرتُه إليها وأمنياته فيها، حضرت الوفاة عبد الملك بن مروان فقيل له: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قَالَ: أَجِدُنِي كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤][1].

(١) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (٧٨).

ولَـمّا حضرت الوفاة الخليفة هارون الرشيد أمر أن تُحضَر أكفانُه، فنظر إليها وهو يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩][١].

ولَـمّا احتُضر أمير مصر عبد العزيز بن مروان جعل يقول: أُفٍّ لَك، أُفٍّ لَك، إنّ طَوِيلَكِ لقصير، وَإِنَّ كَثِيرَكِ لَقليل[٢].

وعندما مرض الأمير عبد الله بن عبد الملك مرض الوفاة جاءته البشرى أن ماله الذي كان بمصر من الذهب قد تضاعف فقال: ما لي وله، إنه ورَوْثَ الغَنَمِ سواء[٣].

وهكذا فقد الذهب بريقه، وانطفأ طمع الحياة، وصار النّظر إلى الحياة التي سينتقل إليها وليس الحياة التي سيغادرها.

ولذا يسخو البخيل في هذا الموقف بالمال الذي كان يجمعه ويشحّ به ويقول: ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

وعند مواجهة الموت يخضع الجبّار، ويشعر بفقد قوّته وسلطانه، ويحاول في هذه اللحظات الأخيرة الالتفات إلى ما كان مُعرِضاً عنه في سعة حياته، ولكنها توبة جاءت في غير وقتها، وبعد فوات أوانها، ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

---

(١) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (٩٦).
(٢) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١١١).
(٣) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١١٤).

ولذا فإنّ فرعون على طغيانه وجبروته حينما أدركه الغرق وواجهه الموت أعلن الإيمان والتوبة بعد أن فات وقتها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

وقد جاءت آيات القرآن تصف لحظة الموت وشدّتها، وأحوال الناس فيها ومشاعرهم وأمنياتهم، وتكشف الحجاب عن المشهد المستور عنّا والذي لا تدركه أبصار الأحياء حول الأموات، فهو غيبٌ مغيَّبٌ لأنّه من أحوال الآخرة التي لا يدركها إلّا مَن صار إليها.

إن مشهد حضور الموت ذو لمسة عميقةٍ مؤثرة، حين تُحشرج آخر أنفاس الحياة، ويقف صاحبها على حافّة العالم الآخر، ويقف مَن حوله حائرين عاجزين، ويخلص أمره كله لله، في هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا، وخلّفت وراءها الأرض وما عليها، وها هي تستقبل عالَماً لا عهدَ لها به، ولا تملك من أمره شيئاً إلّا ما ادّخرت من عمل وما كسبت من خير أو شرٍّ، وها هي مشاهد هذه الحال ومشاعرها وطلائع الآخرة ونذُرُها تتابع في آيات بيّناتٍ، ومن ذلك:

١- الموت نهاية مسيرة الحياة:

إنّ الموت هو أشد شيء يحاول الإنسان أن يروغ منه، وأن يبعده عن تفكيره، فهو يعلم أن الموت أمامه ولا يقدِّر وصوله إليه، يشيّع الجنائز ولا يُقدِّر أن تُشَيَّع جنازته، ولكن أنّى له ذلك! والموت طالبٌ لا يملّ، ولا يبطئ الخُطا ولا يخلف الميعاد، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]،

ومهما حاول الإنسان أن يحيد عن ذكر الموت أو تذكُّره فسوف يواجهه لا محالة، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩]، كثيراً ما كنت تحيد عنه، وتحاول الإفلات منه، وها أنت اليوم وِجاهه.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

إنَّ الذي يدركك هو الذي يأتيك من ورائك، والذي يلاقيك هو الذي يقابلك أمامك، فالجهات كلها طريق للموت، فإنّ تحصّنت منه أدركك، وإن فرَرْت منه استقبلك، فكأنّك وأنت تفرّ منه إنما تُسرع إليه.

إنّ الموت ليس له عمر مخصوص، ولا مرض مخصوص، ولا مكان مخصوص، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، إنّه الموت الذي ينتهي إليه كلّ حيّ فلا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق، ولا لخوف خائف، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويكون النزع الأخير والسَّكَرات الـمُذهلة، والكرب الذي تزيغ منه الأبصار، ويتلفَّت الحاضرون حول المحتَضَر يلتمسون وسيلة أو حِيلة لاستنقاذ روح المكروب، ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

لقد عرض مشهد الاحتضار الذي سيأتي وكأنّه حاضر الآن، وعُرضت الحياة الحاضرة وكأنها من ذكريات الماضي ليستشعر الإنسان هذه الحالة وكأنه يعيشها ويعانيها، حين تلتفّ الساق بالسّاق من الهول والألم، وتبلغ الروح التراقي، ويتساءل مَن حوله من أهله: هل من راقٍ يرقيه، أو طبيب

يعالجه، ولكنْ قد بطلت كلُّ حيلة، وعجزت كلّ وسيلة، أما هو فيعلم أنها لحظة فراق الحياة ووداع الدنيا، وتَبَيَّنَ الطريق الواحد الذي يُساق إليه كلّ حيّ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]. ويأتي هذا التصوير الحاضر ليكشف الغشاوة عمّن يتيه كِبْراً، أو يذهل سكرةً وغروراً وكأنه سيعيش بلا نهاية فيصرخ فيه هذا المشهد: إن الموت قريب بل حاضر، ثم بعد الموت ستكون المواجهة واللقاء العظيم، فبعد الموت لقاء الله والرجوع إليه، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]. ونهاية الرحلة هناك، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. فهنا العبور وهناك المستقر، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢].

وبعد كدح هذه الحياة طالت أم قصرت سيكون المنتهى لقاء الله الذي أخرجنا للدنيا ووهبنا الحياة فيها، ثم يعيدنا إليه لنلاقيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. وحين يُحِسّ الإنسان أن الـمُنتهى إلى الله فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مَفَرَّ منها، ولا مَحيصَ عنها، ويظلّ قلبه ونظره معلّقَين بتلك النهاية منذ أول الطريق، فيعيش حياته هذه يعرف ربّه ويعبده، ثمّ سيلقاه ويتلقّى بشائره وإكرامه، وأمّا مَن كان في حياته مُعرِضاً عن الله متكبّراً على أوامره فيوقَف بين يديه خائفاً ذليلاً كالمجرم الهارب حين يُلقَى القبض عليه.

٢- الندم عند الموت:

لحظة مواجهة الموت هي لحظة الندم على نفاد رصيد العمر وفرصة العمل، فتشتدّ الحسرة على كلّ خطيئة اقتحمها، أو فرصةِ خيرٍ أضاعها،

قال ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ**»، قَالُوا: وَمَا نَدَامَتُهُ؟ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**إِنْ كَانَ مُحْسِناً نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئاً نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ نَزَعَ**»[(١)].

وَاعْلَم أَن الشَّيْء الْـمُمكن وجوده لَا يعرف مِقْدَاره على الْحَقِيقَة إِلَّا إِذا عدم وفقد وَطلب فَلم يُوجد، أَلا ترى أَن الصِّحَّة لَا يعرف مقدارها إِلَّا عند المرض؟! والعافية لَا يُعرف مقدارها إِلَّا عند الابتلاء؟! فَكَذَلِك الْحَيَاة لَا يُعرف مقدارها إِلَّا عند الموت، حين تظهر الأمور وتنكشف الحقائق، ويعلم الإنسان قدر الأعمال الصالحة، وأنها هي التي ستبقى له، وتنتقل معه، وإذا استبان له ذلك علِم مقدار ما ضيّعه، وقيمة ما فرّط فيه[(٢)].

وقد ذكر الله تعالى أمنيات المفرطين والخاطئين عندما يحضرهم الموت، وتبدو لهم طلائع الآخرة، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

إن هذه الأمنية بالرجوع مجرد كلمة، فلن تعيد إليه الحياة الذاهبة، ولا الفرصة الفائتة، هي أمنية قالها في كلمة بعد أن تجاوزها، وصار بينه وبين الحياة برزخ واسع عميق لن يرجع إليه، فضلاً أن يتجاوزه.

إنّه مشهد إعلان التوبة عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة لتدارك ما فات، فيجيء الرد على هذا الرجاء المتأخر:

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٤٠٣). نزع: أي: كفَّ نفسَه عن الإساءة. يُنظر: «مرقاة المفاتيح» لعلي القاري (٨/ ٣٥٢١).

(٢) «العاقبة» لعبد الحق الإشبيلي (٢٠٢).

﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، إنّها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمةُ الإخلاص المُنيب، كلمة تُقال في لحظة الضيق وليس في وقت السعة، فهي كلمة جاءت بعد فوات وقتها، فقد قُضي الأمر، وانقطعت الصِّلات، وأُغلقت الأبواب، وانتهى وقت العمل، وحضر وقت الجزاء.

وذَكَر ندم البخيل على عدم إنفاق ماله الذي كان يجمعه ويبخل به، فيتمنّى أنّه تصدّق به وقدّمه لآخرته فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

٣- سكرة الموت:

يأتي وصف الموت وساعة خروج الروح بأنّها سكرة الموت: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩]، وذِكْر سكرة الموت كفيلٌ برجفة تخفق في القلب وتدبّ في الأوصال، وتستثير الهول والفزع.

ولـمّا نزل الموت بالنبي ﷺ جعل يغمس يده في إناء فيه ماء ثمّ يمسح بها وجهه ويقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ المَوتِ**»(١)، «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى**»(٢). فكانت آخر دعواته طلَبَ لقاءِ الله عَزَّوَجَلَّ ورفقة النبيين الذين سبقوه عند الله.

---

(١) «سنن ابن ماجة» (١٦٢٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٤٠)، «صحيح مسلم» (٢٤٤٤)، «سنن الترمذي» (٣٤٩٦).

وكذا كان الصالحون من الصحابة ومَن بعدهم يستقبلون الموت بالظن الحسن بالله والتفاؤل بلقائه.

ولما حضر معاذ بن جبل الموت قَالَ: انْظُرُوا أَصْبَحْنَا؟ فَقِيلَ: لَمْ نُصْبِحْ. حَتَّى أُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: قَدْ أَصْبَحْتَ. قَالَ: أَعُوذُ بِالله مِنْ لَيْلَةٍ صَبَاحُهَا إِلَى النَّارِ، مَرْحَباً بِالْمَوْتِ، مَرْحَباً، حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَخَافُكَ، فَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ، إِنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيَا وَطُولَ الْبَقَاءِ فِيهَا لِكَرْيِ الأَنْهَارِ، وَلَا لِغَرْسِ الأشجارِ، وَلَكِنْ لِظَمَأ الْهَوَاجِرِ، وَمُكَابَدَةِ السَّاعَاتِ، وَمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ[١].

ولما حضر بلال بن رباح الوفاة كان يقول: غَداً نَلْقَى الْأَحِبَّةَ، مُحَمَّداً وَحِزْبَهُ[٢].

ومرض أعرابي فقيل له: إنك ستموت، قال: فإلى أين سيُذهب بي؟ قَالوا: إِلَى الله. قَالَ: فَمَا كَرَاهَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الله وما رأيت الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ؟![٣]

وفي هذه الساعة يوصي الإنسان بأهم ما يوصِي به، ويُذكِّر بما يُهمّه أن يذكّره غيرَه، ومِن ذلك ما ذكره الله عن نبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولمّا حضرت رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الوفاة

(١) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١٢٧).
(٢) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (٢٩٤).
(٣) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (٢٤).

كان آخر ما أوصى به أنْ قال: «**الصَلَاةَ، الصَلَاةَ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم**»[١]. فكان آخر عهده إلى أمّته المحافظةَ على الصلاة، والرحمةَ والإحسانَ إلى الخدم والرِّفقَ بهم.

ونُقلت إلينا وصايا بعض الصالحين عند موتهم وكان فيها موعظة وذكرى، ومِنْ ذلك:

أنَّه لما احتُضر يَزيد الرَّقَاشِيّ بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ رحمك الله. قال: أبكي والله على ما يفوتني من قيام الليل، وصيام النهار. ثم بكى وقال: مَن يصلي لك يا يزيد؟ ومَن يصوم؟ ومن يتقرب لك إلى الله بالأعمال بعدك؟ ومن يتوب لك إليه من الذنوب السالفة؟ ويحكم يا إخوتاه، لا تغترُّنَّ بشبابكم، فكأنْ قد حلَّ بكم ما حلَّ بي من عظيم الأمر، وشدة كرب الموت، النجاءَ النجاءَ، الحذرَ الحذرَ يا إخوتاه، المبادرةَ رحمكم الله[٢].

ولما احتُضر أبو حازم الأعرج قال له أصحابه: يا أبا حازم كيف تجدك؟ قال: أجدني بخير، أجدني راجيا لله، حسن الظن به. ثم قال: إنه والله ما يستوي مَن غدا وراح يعمر الآخرة لنفسه، فيُقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتى يقدم عليها فيقوم لها وتقوم له، ومَنْ غدا وراح في الدنيا يعمرها لغيره، ويرجع إلى الآخرة لا حظَّ له فيها ولا نصيب[٣].

وأغمي على أبي الدرداء عند الموت، فلـمّا أفاق قال: من يعمل لمثل مضجعي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٥٣)، و «صحيح مسلم» (٥٢٩).
(٢) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١٩١).
(٣) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١٥٢).
(٤) «المحتضرون» لابن أبي الدنيا (١٢٦).

وساعة الموت هي لحظة الغياب عن المشهد الدنيوي واستقبال المشهد الأخروي، يعيشها المؤمن وهو يتلقى بشائر الترحاب والرّحمة، ويعيشها الظالم وهو يتلقّى التوبيخ ونذر العذاب، قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**». قالوا: يا رسول الله، أهو الموت؟ فكلّنا يكره الموت. فقال ﷺ: «**لَيْسَ كَذلك، ولَكِنَّ الـمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الـمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»[١].

إن الجزاء الأخروي نعيماً أو عذاباً يبدأ مع مغادرة الروح الجسد، فلا ينتظر إكمال إجراءات الدفن ولا انتهاء مراسم العزاء، فليس بعد العمل في الحياة الدنيا إلا الجزاء في الحياة الأخرى، وأوّل هذا الجزاء يتلقّاه الإنسان عندما تحضره الملائكة لقبض روحه، ونقله من الحياة إلى الموت، ومن الدنيا إلى الآخرة، فتظهر بشائر السعادة للمؤمنين، وطلائع العذاب للمجرمين، وحينها يُرفع الستار عن المفاجأة، وينكشف الغيب، وتتوالى الأحداث[٢].

وقد وصف الله احتضار المؤمنين السّعداء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٣) مختصراً.
(٢) «ماذا وراء بوابة الموت» للطبيب مصطفى محمود (١٧).

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، إنّ الملائكة تحفّز هؤلاء السُّعَدَاء مرحِّبةً بهم ومُطَمْئِنَة لهم، فقد فارقوا المخاوف والأحزان واستقبلوا نعيم الآخرة وحسن منقلبها.

وجاء الخبر عن النبي ﷺ في وصف خروج روح المؤمن عند الموت وأنَّ ملَك الموت يقول حين يقبضها: «**أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ**»[1]. وهذا من استقبالها بالتَّرحاب والبشرى وسهولة انسياب الروح مِنَ الجسد كما تنساب قطرة الماء مِنَ الوعاء.

وأمّا المجرمون الأشقياء فهم يعيشون لحظات الموت في كرب، ويتلقّون فيها طلائع العتاب والعذاب، وقد وصف الله هذا المشهد في القرآن فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

إنّه مشهد مُفزِعٌ مكروب ومرهوب، أن أرواح هؤلاء الأشقياء تُنتَزع بهذا الوعيد والتّوبيخ، والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، ويطلبون أرواحهم بالخروج، ويقرّعونهم بسوابق جرائمهم.

وجاء عن النبي ﷺ وصف المجرم عند موته وأنّ ملك الموت ينتزع روحه بعنف وتعنيف، ويقول حين يقبضها: «**أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ،**

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٥٣٤).

اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[١] مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ»[٢]، وهذا التوبيخ وشِدة النزع طليعةٌ لِما بعده من الجزاء.

وهكذا تبدأ رحلة العذاب للمجرمين، مع أول مرحلة من مراحل الآخرة التي طالما كذّبوا بها، واستخفوا بالمصير إليها، إنّه العذاب الذي تسبّبوا به على أنفسهم بكفرهم وإجرامهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

(١) السَّفُّودُ: قضيب حديد له شُعَب معقوفة يُستخدم لشواء اللحم.

(٢) «مسند أحمد» (١٨٥٣٤).

خلاصات الموت

١ ـ مع أن الموت حقيقة كونية مدركة للبشر جميعاً، ولكنّهم يتنكرون لها ويعرضون عنها وإن كانوا لا يستطيعون إنكارها.

٢ ـ يُذكّر الله الناسَ بعجزهم أمام هذا المصير، وأن البشر مهما أسند بعضهم بعضا فإنهم يبقون عاجزين مستسلمين عن أن يدفعوا الموت عن أنفسهم، أو يُنقِذوا منه قريباً أو صديقاً.

٣ ـ يَذكُر الله الموت في القرآن مذكِّراً ومؤكِّداً بأنه ليس فناءً ولا عدماً، ولكنه نهاية حياة مؤقتة وبداية حياة خالدة، نهاية اختبار وبداية جزاء.

٤ ـ في ساعة مواجهة الموت تظهر الدنيا على حقيقتها، وتأخذ شهواتها ومطامعها حجمها الحقيقي، ولِذَا فإنه عند الموت يجود الباخلون، ويتوب المجرمون، ولكنه قرارٌ جاء في غير وقته، وبعد فوات أوانه.

٥ ـ لحظة الموت هي أول منازل الآخرة، ولذا يستلم الناس فيها أول جزاءاتهم الأخروية، فأول بشائر الجنة ونعيمها يتلقاها المؤمنون عند قبض أرواحهم.

٦ ـ أما الأشقياء المجرمون فإنَّ أول نُذُر الجزاء الأخروي وطلائع العذاب تتلقّاهم عند نزع أرواحهم، فتقبض الملائكة أرواحهم بالتوبيخ والوعيد.

٧ ـ يعيش المؤمن في حياته مستعداً لهذه اللحظة التي يفارق فيها الدنيا ويستقبل الآخرة، فلا يفاجئه الموت، ولكن يتلقاه بعد انتظار وترقّبٍ مشتاقاً إلى الله، مُوقِناً بالمُنقلَب إليه، حسَن الظن بربه.

وأما الأشقياء المستغرقون في شهواتهم ونزواتهم المحرمة فإنهم يعيشون حياتهم وكأنّهم قد ضمنوا الخلود في الدنيا، فإذا فاجأهم الموت كان ساعة الفزع والرعب، وكأنّما هجمت عليهم فجأة، لتنقلهم إلى حياة أخرى لم يستعدوا لها، ولم يعملوا من أجلها، وعندما يُكشف الحجاب فإنها أول سعادة المؤمنين وبشائرهم، وأول شقاء المجرمين وفزعهم، وقد أخبر النبي ﷺ بحال الناس في تلك اللحظة الحرجة فقال: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**» قَالَتْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الـمَوْتَ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الـمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الـمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ**»[1].

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٣).

٨ ـ ما بعد الموت وقبل البعث هي حياة البرزخ بين الدنيا والآخرة، وفيها سؤال قبل الحساب، ونعيم للمؤمن قبل نعيم الجنة، وعذاب للمجرم قبل عذاب النار، ولا نعلم شيئاً عن تفاصيل هذه الحياة، ولكنها طليعة الجزاء الأُخروي نعيماً أو عذاباً.

ثانياً: حياة البرزخ

وما بعد الموت وقبل البعث هي حياة البرزخ بين الدنيا والآخرة، فإن منازل الحياة ثلاثة، منزلة الدنيا من الميلاد إلى الوفاة، ومنزلة البرزخ من الموت إلى البعث يوم القيامة، ومنزلة الآخرة وفيها البعث من القبور ثم الحساب ثم الجزاء: في نعيم مقيم أو عذاب أليم[١].

وفي القبور حساب قبل الحساب، ونعيم للمؤمن قبل نعيم الجنة، وعذاب للمجرم قبل عذاب النار.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال نبي الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُل -لِمُحَمَّدٍ ﷺ- فَأَمَّا المُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ. فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً**»[٢].

---

(١) «الروح» لابن القيم (١٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٧٤)، «صحيح مسلم» (٢٨٧٠).

وقال ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

وكان ﷺ يتعوّذ بالله من عذاب القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ(٢).

وكان يأمر بالاستعاذة من عذاب القبر، ويقول: «**اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ**»(٣).

ونحن لا نعلم شيئاً عن تفاصيل هذه الحياة البرزخية، ولكن نعلم أنها طليعة الجزاء الأخروي، وأن المؤمنين يتلقون نعيماً هو بشرى النعيم الذي سينقلبون إليه، وأن المجرمين يتلقون عذاباً هو نذير العذاب الذي سيصيرون إليه.

وسؤال البرزخ ونعيمه أو عذابه سيُلاقيه مَن مات إذا فارقت روحُه بدنَه سواءٌ كان مدفوناً في قبر، أو غريقاً في بحر، أو رماداً في حريق(٤)، فعالَم ما بعد الموت من الغيب الذي نؤمن به ولا نعلم كيفيّته، ولا نقيسه على ما نُدركه ونُعايشه.

وهذه الأجساد ستصير رفاتاً وتراباً في الأرض، ولكن للأرواح عالمها ومستقرَّها عند ربّها؛ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٧٩)، «صحيح مسلم» (٢٨٦٦).
(٢) «صحيح البخاري» (١٣٧٢)، «صحيح مسلم» (٥٨٦).
(٣) «مسند أحمد» (٢٤٥٢٠).
(٤) «الروح» لابن القيم (١٦٩).

ثالثاً: البعث بعد الموت

إنّ الإيمان بالبعث بعد الموت من أعظم وأهم القضايا التي اعتنى القرآن بإثباتها، خاصة أن من خاطبهم القرآن أول ما أُنزل كانوا ينكرونها، ويقولون: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ [الإسراء: ٤٩].

فجاءت الآيات تقرر الإيمان بالبعث وتقربه للفهم، وتضرب له الأمثال، وترد على من أنكره بأنواع البراهين الدالة على أن بعد الموت بعثاً وحياةً وجزاءً على الأعمال ثواباً وعقاباً، وأن المنقلب من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، ومن العمر القصير العابر إلى الحياة الخالدة الباقية.

ولضخامة هذه القضية الإيمانية الكبرى اتّسعت مساحتها في القرآن، وكرّر اللهُ القول فيها وفصّله، وصوَّر مشاهد الآخرة حتى كأنّما نراها ونعيشها، وقرّبها حتّى عبر عن مستقبلها بالماضي: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وهذا الأسلوب البليغ يفيد يقينية الخبر وقطعيته، وقُرب وقوعه حتى كأنّه قد وقع.

والاعتقاد بيوم الدين كليةٌ من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخَر بعد عالم الأرض، فلا يستبدّ بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور، وعندئذ يكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيثُ يُقدِّرُه الله، في الأرض أو في الدار الآخرة سواء، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق، وفي سعة وسماحة ويقين.

وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تستقر هذه الحقيقة في تصور البشر، وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها، وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمداً على العوض الذي سيلقاه فيها.

وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق، ولا سلوك ولا عمل، ولا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها مع آخر يعيش لهذه الدنيا ولا ينتظر ما وراءها، فهما صنفان مختلفان من الخَلْق، وطبيعتان متمايزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل، ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء، وهذا هو مفرق الطريق.

وشتّان بين مَن يعيش بين جدران الحسّ الـمُغلقة ومَن يعيش في الوجود الواسع الرّحيب، بين مَن يشعر أن حياته على الأرض هي كلّ وجوده ومَن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاءٌ يمهِّد للجزاء، وأنّ الحياة الحقيقية هي هناك، هذا ينظر إلى الدنيا وذاك ينظر إلى الدنيا والآخرة،

هذا ينظر للحاضر وذاك ينظر إلى الحاضر والمستقبل، ينظر إلى الوجود ويؤمن بالغيب الموعود.

وقد أكثر القرآن الحديث عن الآخرة وحسابها الدقيق ونعيمها المقيم وعذابها الأليم، وأكّد للبشر أن حياتهم فوق التراب قصيرة، وأن الموت رقدة مؤقّتة بين مرحلتين من الوجود، الأولى للغرس والأخرى للحصاد، وأنّ بني آدم بعد رحلتهم في أرجاء الدّنيا وتوارثهم عمرانها جيلاً إثر جيل سوف يعودون إلى الله كرّة أخرى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقد تنوعت الآيات في معالجة هذه القضية وتطرّقت إليها من عدّة جوانب تحاصر مكابرة النّفس المنكرة، وتقضي على مغالطتها لهذه الحقيقة اليقينية الكبرى، فمن ذلك:

١- الأمر بتذكُّر يوم القيامة والبعث والاستعداد له:

لـمّا كانت أعمارنا قصيرة ونستقبل حياة خالدة لا انقضاءَ لها فإن إغفال هذا المستقبل خسارة فادحة، بل هو الخسران العظيم، ولذا جاء التذكير به والإشعار بقربه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

هذا مشهد تحمّل المسؤولية الكاملة عن كلّ عمل عملناه، فلا تنفع هناك شفاعة، ولا فِدية، ولا ينتظر أحدٌ نصراً من أحد.

إنّ الـمُصدِّق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لحساب الآخرة لا لحساب الدنيا، ولموعد الآخرة لا لمواعيد الدنيا، فهو ناظرٌ إلى الغد مستعدٌّ له، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

والمؤمن في خوف من الآخرة واستعداد لها، فهو يعبد الله في هذه الحياة ونظره شاخص إلى الآخر يَحْذرُها ويعمل لها، قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩]. إنّها صورة القلب الحيّ اليقِظ الذي يعيش حياته على الأرض في حذَرٍ مِنَ الْآخرةِ، وتطلّع إلى رحمة ربّه وفضله.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

واليوم الذي نُرجع فيه إلى الله يومٌ مهولٌ عسير، له موقع في القلب، ومشهد حاضر في الضمير، وتذكّر الوقوف بين يدَي الله في هذا اليوم خاطر يُزلزل الكيان، ويُعيد اليقظة، ويبعث التقوى في كل قلب فيه بقيّة حياة.

٢- ذكر تكذيب الـمُنكرين للبعث ومغالطاتهم التي يحتجّون بها:

كثيرٌ هم أولئك الذين يعيشون سكرة الشهوات لا يحسّون إلا وجودهم المادّيّ الحاضر، ويقول أحدهم مبرّراً تنكره لآخرته: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: ٣٦]. ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وقد ذكر الله

دعواهم الباطلة هذه وإنكارهم الـمُكابر، فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

وقد يحلفون على هذا الإنكار: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

٣- ذكر الأدلة على إعادة الحياة إلى الأموات:

لقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين، مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند مَن يتصوَّر طبيعة الحياة والموت والبعث والجزاء، ولِذا تتَابعتْ آيات القرآن بالتذكير بالبعث وذِكر الأدلّة والأمثلة القريبة الـمُشاهَدة عليه، ومِن ذلك:

أ- تذكيرهم أن الذي خلقكم من العدم قادرٌ على أن يعيدكم كما خلقكم:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. إنّ النشأة الآخرة ليست أعسر من النّشأة الأولى، فالله عَزَّوَجَلَّ الذي أنشأ الخلق أول مرة وابتدعه على غير مثال سابق، فإعادة الخلق مرّة أخرى أهون من إنشائه أول مرة، وفي ذلك تقريب لأفهام البشر ومداركهم، وتحقيقٌ للبعث، وإلا فإنّه ليس في قدرة الله الغالبة عسير ويسير، وشديد وهيّن، فكل ذلك على الله يسير، وأداة الخلق في كل ذلك واحدة، إنّها أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كن، فيكون»[(١)].

(١) «تفسير ابن جُزَيّ» (٦٣٩).

وقال ﷺ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً. وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤاً أَحَدٌ»(١).

وقد تكرر تأكيد هذا المعنى في آيات كثيرة حيث يلفت النظر إلى قدرة الله في ابتداء الخلق أول مرة فكيف بإعادته!

قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: ١٥]. فمَن أوجدهم بعد العدم يحييهم بعد موتهم ويعيدهم نشأة أخرى.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

وهذا اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، فأين كان وكيف كان، والبعث أقرب إلى التصوّر من النشأة الأولى لو أنّه تذكّر، فعجباً ممّن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الأخرى.

ب- أن الذي خلق السماوات والأرض قادرٌ على خلقهم مرة أخرى:

فبيّن الله لهم أن الذي خلق السماوات والأرض والأفلاك في هذا الكون الواسع الهائل قادرٌ على أن يخلق مثلهم، وأن يعيدهم أحياء بعد موتهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٧٤).

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٩٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩].

إنّ تفكر الإنسان في عظمة خلق السماوات والأرض يجعله يوقن أن الذي خلقها قادرٌ على إعادة الحياة إلى الأموات مرة أخرى.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ج- بيان أنّ إحياء الأرض الميتة بالمطر مشهد للإحياء بعد الإماتة:

فهذا المنظر يتكرّر في حياة الناس، وهم ينتظرونه ويراقبونه، فيرَون الأرض يابسة مُجدبة لا نباتَ فيها ولا حياة، فيُنزل الله عليها الماء فتهتزّ بعد همود، وتتفتّح بعد كمون، وتدبّ فيها الحياة، ويُعاد جفافها الـمُوحش نضرةً وبهجة، وقد ربط الله هذا المشهد بمشهد خلق الإنسان وإخراجه للوجود بعد أن لم يكن موجوداً، ليدلّ على أن مشهد إيجاد الإنسان في أطوار خلقه الأولى وإحياء الأرض الميتة بالماء كلَّها دلائل على البعث والإحياء في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحج: ٥، ٦].

ويتكرّر في القرآن عرض هذا المشهد دليلاً للإحياء في الآخرة، ومشهد الحياة في الأرض بعد مواتها قريبٌ من كل قلب، لأنه يلمس القلوب

قبل أن يلمس العقول، والحياة حين تنبض من الأرض بعد موتها تُذَكّر البشر بحياتهم الأخرى بعد موتهم، واندثارهم في هذه الأرض، وهو مشهد يُقنع العقل ويوقظ القلب ويَهزّ المشاعر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

د- الاستيقاظ من النوم إحياء:

ومثل إحياء الأرض بعد موتها إحياءُ الأنفس بعد نومها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

فالنوم موتة صغرى والاستيقاظ منه شبيه بالإحياء بعد الموت، وسيقول المكذّبون إذا بُعثوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]. وكان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[(١)]. إنّ الاستيقاظ من النوم هِبةٌ أخرى للحياة، فعجباً ممن ينكر البعث بعد الموت وهو في كل يوم يموت ويحيا[(٢)].

هـ- ما وقع من معجزات إحياء الموتى على أيدي الأنبياء وشهدته أممهم:

ومن ذلك إحياء الموتى على يد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث قال الله عنه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١٢).
(٢) «علم الآخرة» محمد أمحزون (٨٠).

لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وكما جاء هذا الخبر في القرآن الكريم جاء في مرويات الإنجيل الباقية إلى اليوم[(١)].

وهذه معجزات تُثبت للبشر قدرة الله على إحياء الموتى مرة أخرى.

و- أن البعث بعد الموت هو المتّفق مع عدل الله وحكمته:

إن الإنسان يرى في حياته الخير والشّرّ يصطرعان، ويشهد معركة الرذيلة والفضيلة، وكثيراً ما ينتصر الشر على الخير، والرذيلة على الفضيلة، والفرد في عمره المحدود لا يشهد ردة الفعل، ولا عواقب الخير والشّرّ، فيعزّ عليه أن لا تكون للخير كرّة، ولا يلقى الشرُّ جزاءَه، والاعتقاد بوجود ألوهية عادلة يستتبع حتماً جزاءً على الخير والشر، وإن لم يتمّ على الأرض في هذا العالَم فلا بُدّ أن يتمّ هناك في عالمٍ آخر.

واستيفاء المحسنين جزاء إحسانهم، وعقاب الظالمين جزاء ظلمهم لا يَتِمّ دائماً في هذه الحياة، فكم ممّن ظَلَم وأجرم وغادر هذه الحياة دون أن يلحقه عقاب! فهل كان الله غافلاً عنه أو عاجزاً عن عقابه؟ أم إنه سيجازيه في دار الجزاء والخلود؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

---

(١) ينظر: (إقامة بنت يايرس: مرقس ٥: ٤١-٤٢، لوقا: ٨: ٥٤-٥٥، متى: ٩: ٢٤-٢٥) و(إقامة ابن أرملة نايين: لوقا: ١٢-١٥).

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وعندما ذكر الله المجرمين الذين قَتَلُوا المؤمنين وأحرقوهم في نيران الأخدود لم يذكر عقوبةً أصابتهم في الدنيا على جريمتهم البشعة، كغرق قوم نوح، أو غرق فرعون، أو عقوبات الأمم الكافرة، وإنّما توعّدهم بحريق أعظم وأشدّ وهو حريق الجحيم في الآخرة، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ٤-١١].

إن ميدان الحساب والجزاء أوسع من رقعة الأرض، وأبعد مدى من الحياة الدنيا، فمجال الجزاء ليس الأرض وحدها، وليس الحياة الدنيا وحدها، وما جرى في هذه الحياة ليس إلا الشطر الصغير والقصير من المشهد، فمتاع الدنيا قليل، وعمرها قصير، ولكن بقية المشهد هناك في الآخرة حيث العطاء أعظم، والعقاب أشدّ وآلَم، والعمر أبدٌ لا ينقضي، ولا تكون الحياة الدنيا وإن طالتْ إلا كومضةٍ أو لحظةٍ، أما الآخرة فخلودٌ لا يتناهى، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

ز- الجواب عن حكمة الخلق والإيجاد:

يتساءل الإنسان عن مصيره بعد أن عُمِّر في الأرض ما عُمِّر، وصنع فيها ما صنع، وتميّز عن غيره من الكائنات حوله بمَلَكةِ الإدراك والعقل، وحرّيّة الإرادة والقرار، هل سيكون مصيره بعد ذلك كمصير أي حشرة زاحفة، حياة قصيرة محدودة لا يتمّ فيها شيءٌ كامل أبداً ثم ينتهي كل شيءٍ إلى الأبد، هل وُجد الإنسان لينتهي إلى هذا المصير البائس المهين، إن هذه عبثية في الحياة وازدراء بالإنسان وعقله ومداركه وحرّيّته ينزَّه عنها الخالق الحكيم الذي أتقن كل شيءٍ خلقه، وخلق الإنسان مميَّزاً عن كل المخلوقات حوله، وقد نزّه الله عَزَّوَجَلَّ نفسه عن هذا العبث فقال جلّ وعزّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ولم يخلق الله هذا الكون لعباً ولا لهواً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧]. فالله عَزَّوَجَلَّ بعلمه وحكمته منزَّه عن اللهو واللعب والعبث، فهو الحكيم في خلقه، وفي أمره، وفي حكمه عَزَّوَجَلَّ.

إن الله الذي قدّر للبشر حياتهم هذا التقدير لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدىً، ويموتون هَمَلاً، ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثمّ يذهبون في التراب ضياعاً ويلقون مصيراً واحداً.

إنّ هناك يوماً للحُكم والفصل في كل ما كان، ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧].

إن الله عَزَّوَجَلَّ وهو يسوق الدلائل على البعث بعد الموت والرجوع للدار الآخرة الخالدة يتلطّف بهذا الإنسان ويذكّره فضله عليه، وإكرامه له،

ويخاطبه بأحسن ما فيه وهو إنسانيته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ٦-١٢].

إنه خطاب يهزّ القلوب ويشعر هذا الإنسان بعناية ربه، ومآثر خالقه الذي خلقه، وسوّاه في هيئة معتدلة، وقِوام سويٍّ سليم، فأيّ تلطّف بهذا الإنسان في خطابه وتذكيره بمصيره.

فهل يقابَل كرم الله بالجحود، وإنعامه بالكفران، ووعده بالتكذيب؟!

٤- بيان حسرة المكذبين بالبعث يوم القيامة:

بغتةً تقوم الساعة، وفجأة يكون البعث: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. وحينها يخرس صوت الإلحاد ويتبدّد صداه، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَٰقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ١، ٢]. إن الإنسان مجادل عنيد، ولكنْ ما عساه أن يقول وقد وقع الهول، حينها تجفّ حلوق الأفّاكين ويتساءلون في ذهول: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. إنّه يوم تصحيح الأوضاع وجَلاء الحقائق، ولذا جاءت آيات القرآن تصف هذا المشهد: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ١٥-٢١].

هكذا تكون صدمة الفجاءة، أن يجدوا أنفسهم في اليوم الذي طالما حُدِّثوا عنه فأعرضوا، وذُكِّروا به فكذّبوا، وخُوِّفوا منه فاستهزؤوا، فإذا صاحوا بدهشة: ﴿يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠]. جاءهم التذكير بتكذيبهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١]. فتنقلب الدهشة حسرة، والذهول خشوعاً وخضوعاً واستسلاماً.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٦-٨].

في هذا التجمع والاحتشاد والإسراع يقول الكافرون بحسرة وذهول: هذا يوم عسِر، وهي زفرة المكروب المجهود يخرج ليواجه رهبة ذلك اليوم وكربه وعسره، فتنكّس الرؤوس وتخشع الأبصار وتحلّ الذّلّة محلّ الاستكبار.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

٥- كيف سيتذكر الناس حياتهم الدنيا في الآخرة؟:

عندما يُبعث الناس سيتذكرون حياتهم التي عاشوها في الدنيا، فتبدو لهم عارية من أطماعها وآمالها ومن رغباتها ومتعها، إنها ذكرى قصيرة عبرت سريعاً، ولذا سيتساءلون عن مقدارها: كم كانت؟ وكم عاشوها؟ كم لبثوا فيها؟، قال الله تعالى يصف هذه الدهشة: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۝١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

هكذا تبدو الحياة الدنيا لأهلها بعد أن غادروها، فإذا التفتوا إليها رأوها قصيرة قليلة، فسنواتها الطويلة كلها تبدو في تقديرهم كأنها عشرة أيام، بل كأنها يوم واحد، ويتضاءل هذا المقدار إلى أقل من ذلك حين يسألهم الله: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]. لقد قَلّتْ حتى صارت يوما أو بعضه، وتقلّ حتى تبدو صباح يوم أو مساءه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]. وتقلّ حتى تكاد أن تضمحلّ حين تبدو لهم وكأنها ساعة من نهار، ليست يوما ولا بعض يوم، بل مجرّد ساعة؛ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]. هكذا استوى من مات شابا ومن مات شيخاً، واستوى من عاش أربعين سنة ومن عاش تسعين سنة، استوت في الوعي بأنها لا تزيد على ساعة، وعشرات السنين التي مضت وانقضت، وتعاقبت بين عسر ويسر، وشدة ورخاء، وحرب وسِلم، هي ساعة تعارفوا فيها بينهم، وهكذا بدت لهم في وعيهم الجديد، إنها شيء قليلٌ قليل، أمام عمر الخلود غير المتناهي، كما أن أي رقم مهما كان كبيرا هو صفر بجانب العدد غير المتناهي، وأي مقدار زمني مهما كان طويلاً هو بالنسبة للأبدية كمٌّ تافه مهمل، ولذا فإن المجرمين الذين عاشوا حياتهم الدنيا بطولها وعرضها، وعاشوها على أنها عمرهم الوحيد المديد، فعبّوا من متعها وشبعوا من لذائذها سوف يُقسمون يوم القيامة بيقين أنهم ما لبثوا فيها غير ساعة تقليلاً لشأنها وعمرها:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

يا لله! أما كان يجب أن تصبروا على تلك الساعة فتعفّوا عن مآثمها ومظالمها في عمر لا يساوي شيئاً من عمر الأبدية الخالد، حين تتحول هذه الجرائم والآثام عذاباً مؤبَّداً وبؤساً مقيماً؟!

وهل نتذكر نحن ونتفكر في بقية أعمارنا التي هي في حقيقتها الثواني القليلة المتبقية من هذه الساعة؟ فنتدارك أخطاءنا، ونصلح أعمالنا، وننتفع ببقايا العمر، فإن من حُسن حظنا أننا لا نزال أحياء، وأننا لا زلنا في الفرصة، لنفيق من الغفلة، ونتدارك الأمر، ونُصلح الخطأ، ونستغفر من كل ذنب[1].

٦- التكذيب بالآخرة كان سبباً في عدوان الكافرين وإجرامهم

هناك مَن يعتقدون أنّ خط الحياة مطّرد مستمرّ، وأنّ الموت عدم، ولذا فلا يتّخذون الأهبة للآخرة، بل ينساقون وراء مآربهم بطيش، ويحتجبون داخلها فلا يبصرون عاقبة ولا جزاءً: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٥، ٦].

إن الكافرين يبنون حياتهم على أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، وهذا هو الأساس في إيغالهم في المعاصي، وانكبابهم عليها دون شعور بقبحها أو ندم على اقترافها.

---

(١) «ماذا وراء بوابة الموت» للطبيب مصطفى محمود (٨-٩).

وبيّن القرآن حالَ أولئك وباعثَهم على إجرامهم فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٥-٥٠].

لقد كانوا مستغرقين في ترفهم، مصرّين على إجرامهم، لأنهم لا يعتقدون بحياة بعد الموت، ولا جزاء على العمل، ويتساءلون مستغربين مستبعدين: فأين آباؤنا السابقون؟!. فيأتيهم الجواب أنّ يوم البعث يوم مقدَّر معلوم سيُجمعون فيه هم ومَن مضى قبلهم ومَن أتى بعدهم: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

٧- اليقين بالحياة الأخروية هو الباعث على التقوى والعمل الصالح:

فأهل الإيمان يعلمون أنّ المستقبل الحقيقي يشمل القليل الباقي من العمر، والطويل الباقي من الحياة الآخرة، ويستشعرون قربه، وسرعة المصير إليه، وهذا ما يلفتنا إليه القرآن عندما يعبّر عن الآخرة بالغد، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

ومن دلائل ذلك في القرآن قوله تعالى:

- ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١-٤]. فيقينهم بالآخرة كان باعثاً لهم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات.

ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠]. فهذه الهيبة من الله والوجل للقائه جعلتهم يسخون بالإنفاق مع يقينٍ بالثواب.

ووصف الله أهل الجنة فقال:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٠]. فهذا الخوف من يوم البعث والجزاء جعلهم أهل وفاء، وأهل بذلٍ وسخاء، وبيّنوا أنهم إنما يُطعمون الطعام ويؤثرون به على حبّه لأنّهم يستعدّون بذلك لشدّة ذلك اليوم وهَوله، فكان هذا الإيمان بالحياة الأخرى هو المحرّك لعزائم الخير في نفوسهم، وهو الموجِّه لسلوكهم.

ولهول البعث وكربه كان النبي ﷺ يُكثر سؤال الله أن يقيه عذاب ذلك اليوم ورهقه، قالت حفصة رضي الله عنها: كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول: «**اللهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**» ثَلَاثَ مِرَارٍ[1].

فيا الله! إذا كان النبي الكريم الذي غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخّر، وآمنَه اللهُ من كلِّ ما يُخاف يُخافِتُ ربَّه بالدعاء في سكون الليل وهجعة الناس أن يقيه عذاب يوم البعث، فماذا يقول غيره؟! وكيف ينبغي أن يكون خوفنا وإشفاقنا؟!.

---

(١) «سنن أبي داود» (٥٠٤٥).

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لولا يوم القيامة لكان غير ما ترَون[١]. أي: أنّ كثيراً من العدوان والبغي إنّما يمنع منه مخافة الآخرة واليقين بالجزاء فيها.

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٤/ ٣٠٩).

خلاصات البعث بعد الموت

١ ـ أنكر الكفار البعث بعد الموت، واستبعدوا أن يعيدهم الله أحياء بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً، واختلطوا بتراب الأرض:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٢ ـ رد الله عليهم دعواهم بحجج ظاهرة قاهرة.

ـ فبَيَّن أن مَن خلقكم من العدم قادر أن يعيدكم كما خلقكم أول مرة.

ـ وأن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

ـ وأنهم يرون الأرض ميتة فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ودبت فيها الحياة.

٣- أنّ مساحة عمر الإنسان المحدود لا تتّسع لترى جزاء كلّ ظالمٍ، ونهاية معركة الخير والشّرّ، والتي كثيراً ما ينتصر فيها الظلم ويفشو الشّرّ وينتشي، فلا بدّ من يوم جزاء يُستوفى فيه الحقّ، ويتحقق العدل، والشكّ في ذلك شكٌّ في العدل الإلهي.

٤- أن نهاية عمر الإنسان في الأرض لا يمكن أن تنتهي إلى عدمٍ، لأنّ مَن خلق الكون وخلق الإنسان العالِم المُدرِك الحرّ في إرادته لا بُدّ له من حكمة بالغة، والتشكيك في عمر الخلود والآخرة شكٌّ في حكمة الخالق الحكيم؛ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

٥- أن هذه الغفلة عن البعث واليوم الآخر ستنقلب صدمةً وهولاً، وحسرةً وندامةً، إذا بعثوا يوم القيامة ورأوا ما كانوا به يكذبون: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

٦- أن إنكارهم للبعث والحياة والآخرة كان سبباً لاغترارهم بالحياة الدنيا وتكبُّرهم وبغيهم.

٧- وكان إيمان المؤمنين باليوم الآخر باعثاً على الاستعداد له بالعمل الصالح، والإحسان إلى الخلق رجاء ثواب الله وحسن جزائه في الآخرة.

٨- جاءت الآيات بالأمر بتذكر يوم البعث والجزاء، والاستعداد له والنظر في ما قدَّم كلٌّ لذلك اليوم، والإشعار بقربه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

٩- ما زال البشر بحاجة ملحّة إلى تذكّر يوم القيامة، فإنّ هذا التذكّر يهذّب غرائزهم، ويُكَفْكِفُ أطماعهم، والعاقل إذا علم أن هذا اليوم حقّ لم يُؤثِرْ قليلاً على كثير، ولا فانياً على باق، ولمْ يزهد في جزاء الآخرة اغتراراً بمتاع الدّنيا.

رابعاً: وصف القيامة والحساب

القيامةُ والبعثُ بعد الموت وأحـوالُ الآخرة، ومصير الخلق فيها من الغيب الذي يؤمن به المؤمنون كما أخبر الله عنه، فيعملون في هذه الحياة وهذا المستقبل الغيبي نصب أعينهم، ويوقنون أنهم صائرون إليه بعد الموت، وأن الحياة الحقيقية الخالدة هناك، والجزاء على الإحسان والإساءة هناك، وهذا الإيمان بهذا الغيب الأخروي هو الضابط للسلوك، والمحفز للعمل الصالح، وبهذا الإيمان واليقين تأخذ الحياة التي نعيشها حجمها الحقيقي، فيتحمل المؤمن ما يلاقي فيها من شدائد وآلام بصبر واحتساب، لأن نظره اليقيني ممتد إلى ما بعد هذه الحياة، وهي الحياة الأخرى الخالدة.

وقد جاء وصف القيامة في القرآن، ووصف حال الناس وفزعهم حين بعثهم من قبورهم، وذهولهم لِـما يواجهونه من حقائق الحياة الأُخرى في آيات كثيرة تمثّل حقائق الآخرة في مشاهد ماثلة، وصور مكثَّفة، كما لم يتصوّره خيالٌ بشريّ، حتى كأنّما نرى حركتها ونسمع ضجيجها، ونستشعر فزعها وهَولها، وبذا نَقلتْ آياتُ القرآن المؤمنين إلى عالم الآخرة،

فإذا هم يؤمنون بعالمٍ آخر، وبجنّة ونار، ونعيم وعذابٍ، وعدالة مطْلَقة، ورحمةٍ واسعة.

فهم في استعداد دائمٍ لها، وتحفُّزٍ للانتقال إليها، لأنها ماثلةٌ أمامهم، قريبةٌ منهم.

وقد جاءت آيات القرآن بوصف لأحداث القيامة، بدءاً من اضطراب الكون واختلال نظامه وانتهاء عمره إلى نفخة الصُّوْر، والبعث من القبور، وجمع الناس للحساب، ونصب الميزان، ونشر الصحف وتسليمها، وسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، إلى نعيم خالدٍ في الجنة أو عذابٍ مؤبّدٍ في الجحيم، ومن ذلك:

١- وصف انهيار الكون وانتهاء عمره:

مع قيام السّاعة يضطرب نظام الكون الذي كان يسير بانتظام دقيق طَوال آماد الدّنيا، فقد انتهى عمر هذا الكون الدنيوي وانتهى إلى أجله المقدَّر، وستبدأ حياة أخرى جديدة، إنّه انقلاب لكل معهود، وثورة شاملة لكلّ موجود، فهذا الكون سينفرط نظامه، وتتناثر أجزاؤه، وتقع الأحداث الكونية العظام التي تشمل أجرام السماء ومعالم الأرض، ونفوس البشر وأوضاع الأمور، فالشمس قد ذهب ضوءُها وكُسفت، والنجوم قد انفرط عقدها وانتثرت، والجبال قد نفشت وسُيِّرت، والبحار قد سُجِّرَت وفُجِّرَت، والسماء التي كانت سقفاً للأرض قد كُشفت، والجحيم قد التهبت وسُعِّرَت، والجنة قد هُيِّئَت وقُرِّبَت، وكما تبدّل أجساد البشر عند بعثها فسيبدّل الكون بما يليق بحال الآخرة،

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وحينئذ يُبعثر ما في القبور، ويحصَّل ما في الصدور، وينكشف كل مستور، ويُعلَم كل مجهول، وتجد كل نفس ما عملتْ من خير محضراً، وما عملتْ من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً، إنه انقلاب مرهوب، أكبر من أن ندركه الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيَّدة بمألوفنا وما يُدركه حِسُّنا، إنها هزّة عنيفة للقلوب الغافلة، وصيحة مزلزلة للأرض ومَن عليها، وإنّ هذه الصورة المَهولة المروِّعة كفيلة بإثارة الخوف والإشفاق، والتفكير مرة بعد مرة قبل العصيان والإباق، والتفكر في الفرصة قبل فواتها: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

وقد ذكر الله هذه الأحوال والأهوال وبيّنها وفصّلها فقال: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الإنفطار: ١-٥].

٢- النفخ في الصور والبعث:

النفخ في الصور هو صيحة الفزع التي يبعث الناس بها من قبورهم، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

إنّ النّاس عند البعث يعتريهم ذهول ودَهَش، ويخيّم عليهم صدمة وحيرة، وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢]. يتبدّى السُّكر في نظراتهم الزائغة، وفزعهم المذهل، وخطواتهم في ذلك الحشد المتماوج الذي لا يبلغ أقصاه، وهو هَولٌ مذهلٌ، تذهل فيه كل مرضعة عمّا أرضعت لو كانت تُرضع، وتضع كل ذات حمل حملها، وليس ثمة رضاعٌ ولا حمل، ولكنه تصوير هول الدهشة والذهول، ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١]. إنه هول عظيم تحتبس له الأنفاس، وتطيش العقول، وتصعد القلوب فزعاً حتى تكظم الحناجر: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. فقد ضاقت الصدور، وزهقت النفوس، واشتد الكرب، وبلغ الضيق مبلَغاً عظيماً حتى كأن القلوب تغادر مكانها، فتُحشر في الحناجر، فتكرب النفس، وتُكظَم الأنفاس، وقد استبدّ الكرب بالظالمين، فليس يُسمع كلامهم فيُسرَّى عنهم، ولا شفيع يسعى في أمرهم فيُفرَجُ لهم، لقد تخلّت الأرض عما فيها من تلك الخلائق التي لا تُحصى، والتي طوتها الأرض أجيالاً بعد أجيال، وقروناً بعد قرون، حتى إذا كان ذلك اليوم أَخرجت الأرضُ كلَّ مَن فيها، واجتمعت أمم الأرض وأجيال البشرية في احتشادٍ هائل وحشر عظيم، ومع الاجتماع البشري الهائل للأوّلين والآخرين، إلّا أنّ هناك صمتاً مُطبقاً أو تساؤلاً خافتاً، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨]، ويقوم الملائكة بين يدَي

الرحمن خاشعين صامتين، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]. وموقف هؤلاء الملائكة المقرّبين خاشعين صامتين لا يتكلمون يُلقِي في النّفس الرهبة والفزع من ذلك اليوم، وقد وصف الله مشاهد ذلك فقال:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٨، ٦٩].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١١٢].

وهذه الرجفة والبعث من القبور ومواجهة الحساب والجزاء لها دهشتها وذهولها وفزعها، وحسرتها وألمها، وهذا الإنسان مشدوه مأخوذ، يلهث فزعاً ورعباً، واضطراباً وذهولاً، لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل دهشة وعجباً، وهو يواجه مشهد الحشر والحساب: ما لهذه الأرض؟!

ما لها؟! وقد زُلزلَت زلزالها، وأخرجت أثقالها، وأشد ما يقع هذا الفزع والذُّهول الفاجع لأولئك المكذبين بالبعث المستهزئين به حين يبعثون فإذا الخبر صار عياناً، وإذا القيامة التي كانوا ينكرونها صارت حقيقة يعيشونها فيتساءلون بحسرة وألم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. ﴿يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠]. ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]. ويتحول الذهول إلى خضوع وخشوع حين يتوقّعون الشّدّة والهول، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٦-٨].

وقد وصف النبي ﷺ هذا الذهول فقال: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً**[(١)]». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟!. فقال ﷺ: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ**»[(٢)].

وفي وسط هذا الفزع والذهول يتساءل هذا الإنسان المذعور: أين المفر؟ ولا ملجأ حينئذ ولا مفرّ، فالمرجع والمستقرّ إلى الله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ٧-١٢].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

---

(١) غُرلاً: أي غير مختونين.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٩).

وهكذا تسود الموقف كله رهبة وخشوع وسكون، فالكلام همس، والسؤال تخافت، والوجوه عانية، وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالهيبة والجلال، فالأمر كله لله، ومرجع الأمور كلها إليه.

وفي هذا اليوم تبدو المفاجأة الصادمة والخسارة الفادحة لمن جعلوا همّهم كلّه هو هذه الرحلة الخاطفة في الحياة الدنيا، وكذّبوا بلقاء الله، وشُغِلوا بشهواتهم وآثامهم، ولم يستعدوا لهذا اليوم بشيء يلقَون به ربهم، ولم يستعدوا للإقامة الطويلة في الدار الباقية، وسيشعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرةً قصيرة، كأنها ساعة من نهار تعارفوا فيها، ثم خرجوا منها، كأنْ لم يفعلوا شيئاً سوى التعارف، فإذا هم اليوم في فزع وذهولٍ أمام الحقيقة التي طالما أعرضوا عنها وأنكروها، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

إنّ كل هذا الفزع والاضطراب والذهول إنّما يُفجع به الذين كانوا في شك من الآخرة وغفلة عنها، فلم يؤمنوا بها، ولم يعملوا لها، فإذا واجهوها كانت الصدمة والمفاجأة وسكرة الذّهول، ودهشة المفاجأة أمام زلزلة الساعة ورجفتها، ومواجهة القيامة وهولها، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

٣- الآمنون يوم الفزع:

وأما المؤمنون بالآخرة العاملون لها فإنهم يُبعثون يوم القيامة طيّبين مطمئنّين، وهم الذين وصف الله حالهم فقال: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. إنّهم في منجاة من هذا الفزع، وأمانٍ من هذا الخوف، فقد سبقت لهم الحسنى من الله، وقُدِّر لهم الفوز، ونَجَوا من الفزع الأكبر الذي يذهل المجرمين، وتتولّى الملائكة استقبالهم والترحيب بهم لتطمئن قلوبهم في جوّ الدهشة والذهول، هؤلاء هم الذين يأتون يوم القيامة آمنين، ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وتتفاوت مراتب التكريم لهؤلاء الطيبين في ذلك اليوم، ومن ذلك ما ذكره النبي ﷺ في قوله: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[(١)].

إنّ الناس في موقف القيامة في كرب شديد، وحرٍّ مرهقٍ وعرق، أمّا هؤلاء فهم في ظل العرش في قُربى من الله وأمان وإكرام.

إنّ هؤلاء الآمنين يوم الفزع هم الذين كانوا مؤمنين به في هذه الدّنيا، خائفين من هذا الموقف مستعدّين له، وكانوا في أهلهم مشفقين،

(١) «صحيح البخاري» (٦٦٠)، و «صحيح مسلم» (١٠٣١).

ينادون ربَّهم والناسُ في غفلاتهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. ولذلك آمنَهم الله فيه من الخوف، فلا يَجمعُ عليهم خوفاً في الدنيا وخوفاً في الآخرة، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٤- جمع الناس للحساب:

ما ظنّك بيومٍ تُجمع فيه الخلائق التي عبرت على هذه الأرض منذ بدء الخليقة وإلى قيام السّاعة فكلّ الأجيال المتعاقبة في الزمان تُجمع في وقت واحد، وكل البشر المتفرقون في المكان يُجمعون في مكان واحد، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. ومن الآيات الواصفة لهذا الجمع والاجتماع قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

هذا يوم الجمع، جمع البشر كلهم، والجن كلهم، والملائكة كلهم على أرض غير هذه الأرض، وسماء غير هذه السماء، فأرضنا هذه ستُسَيَّر جبالها وتُفجَّر بحارُها، وتُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماوات استعداداً للبروز لله الواحد القهار.

ومع هذا الجمع الهائل لكلّ أجيال البشرية وأممها فلا يتخلَّف أحد ولا يُفقد، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، إنّهم مجموعون جميعاً، إلّا أن كلّ إنسان يشعر وكأنّه جاء وحده، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ينبعثون أفراداً يُبعثرهم الهَول الهائل، ويفرّقهم الشُّغل الشاغل، ويُذهلهم الهَول النفسي الهائل لذلك اليوم الرهيب، فيشعر كلٌّ بفردانيته ومسؤوليته هو عن كلّ ما عمله، إنّهم صدروا ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦].

وسيواجه كلٌّ مصيره الذي سيصير إليه، فلا شغلَ له إلا بنفسه وخلاصها، ينسى عشيرته وأسرته وقرابته: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، فكلٌّ مشغول بنفسه وشأنه، ولديه من الهمّ الشّاغل له ما لا يدع له فضلةً من وعيٍ أو جهدٍ لغيره، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، فلا يسأل أحد قريبَه ولا صديقه عن حاله، لأنه مشغول بنفسه، ولا يسأله نصرة ولا إعانة، لعلمه بانشغاله وعجزه، وتنقطع الأواصر والعلاقات والأنساب والقرابات: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، حتى أقرب القرابات لا تُغني شيئاً، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣].

وفي هذا اليوم تنتهي كل أنواع الملك الزائف المؤقت، فكل مُلْك في الدنيا هو ملك مؤقّت ملكته بعد أن لم تكن تملكه، ثم سيفارقك أو تفارقه

ويزول عنه ملكك، ويبقى الملك الحقيقي المطلق لله، ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وستزول كل الأملاك من ملّاكها، ويقفون لله مملوكين لا مالكين، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»[(١)].

وهذا هو ما ذكر الله في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وسوف تمتلئ القلوب هيبة ورهبة، وهل هيبةٌ أعظم من هيبة جلال الله حين يشعر كلّ مَن في الموقف أنهم في حضرة الله وبين يديه؟!.

كيف ستكون هيبة النفوس ووجل القلوب إذا أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ؟ كيف ستكون الرهبة والهيبة إذا جاء ربّك والملك صفّاً صفّاً؟ إنه مشهد تكاد تتقطع القلوب من نياطها مهابةً ورهَباً، وتزهق النفوس خوفاً وفرَقاً، عندما يتنزّل الرّبّ جَلَّ جَلَالُهُ لفصل القضاء بين عباده، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۖ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، لقد أتاهم الله وما كان غائباً عنهم، وجاءهم وما كان بعيدًا منهم، فقد كانوا بين يديه خلقاً وملكًا،

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٣٨٢)، «صحيح مسلم» (٢٧٨٨).

وها هم اليوم بين يديه حساباً وجزاءً، فقد صاروا إليه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وانتهوا عنده: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

لقد جاءهم الله فهم في حضرته، وأحاطت بهم ملائكته، وإذا الناس جميعاً أمام المفاجأة التي كان ينذرهم بها ويخوّفهم إيّاها ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وطُوِي الزمان، وأفلتت الفرصة، وعزّت النجاة، ووقفوا وجهاً لوجهٍ أمام الله الذي تُرجع إليه وحده الأمور، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

إنها طريقة القرآن العجيبة التي يُحيي بها المشهد ويستحضره في التّو واللحظة، فإذا الفزع الأكبر ينتظرهم، بل الفزع الأكبر يدهمهم: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، يوم يُقضى الأمر بل قد قُضي الأمر.

٥- شدة الموقف يوم القيامة:

يوم القيامة يوم الرَّهق والشِّدّة والكرب، وما ظنّك بالناس حين يقفون لله في يومٍ مقداره خمسون ألف سنة، ينتظرون الحساب والفصل والجزاء.

ما ظنك بوقوف الناس لله ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. وقد جُمعوا كلهم، أوّلهم وآخرهم في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ودنت منهم شمس الآخرة، وليست شمس الدنيا التي كُسِفَت وكُوِّرَت وفنيت مع عالم الفناء، ولكنها شمس القيامة التي تدنو من الناس،

فيشتدّ الحر ويرشح العرق، ويكون الناس في العرق على قدر أعمالهم، فمنهم مَن يكون إلى كعبيه، ومنهم مَن يكون إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكون إلى وسطه، ومنهم مَن يصل إلى فمه فيُلجمه العرق إلجاماً، وهم مع ذلك في رهق وقلق لا يدرون ما يصيرون إليه، فيبلغهم من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيموج الناس بعضهم في بعض ويقولون: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون مَن يشفع لكم إلى ربّكم حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول بعضهم لبعض: «**عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحاً فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ**

يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الـمَهْدِ صَبِيّاً، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»[1].

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي محمد ﷺ، حيث يتهيّب الأنبياء والرسل منها لهيبة الموقف حين يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام وتجيء معه الملائكة صفّاً صفّاً، وتُشرق الأرض بنور ربّها، ويأخذ الناس الرَّهب والخوف من غضب الله في ذلك اليوم، وهو غضب لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولعل ذلك لسوء الأعمال التي ستُعرض عليه، وهو أعلم بها، ولِذا يتهيب الرسل من هذه الشفاعة، ولا يتقدَّم لها إلا رسول الله وخليله محمد ﷺ، فهو الذي ادُّخِرَت له هذه الشّفاعة، وهي المقام المحمود الذي وُعِد به، كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، «صحيح مسلم» (١٩٤).

٦- وضع الميزان وعرض الأعمال:

إنّ الحياة الدنيا ميدان اختبار، وليستْ موعداً لإعلان النتائج وإقرار العدل، ولا بدّ من يوم تعود فيه الاستقامة لهذه الموازين المختلة وتصحَّح فيه الأوضاع الجائرة، ويتحقق العدل ويرفع الظلم، ويوضع الميزان العدل.

إنه لا مجال للمغالطة في الـوزن، ولا الجدل في صحة الحكم، فمن ثقلت موازينه فقد ثُقُلت في ميزان الله الذي يزن بالحق، وجزاؤها الفلاح، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وأي فلاح أعظم من النجاة من النار والفوز بالجنة في نهاية هذه الرحلة وختام المطاف، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعـراف: ٩]. وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا بقي له، وماذا يملك إذن؟! وما الذي تبقّى له وقد خسر نفسه؟!.

ونحن نؤمن بخبر الله عن الميزان الذي سيُوضع، والأعمال التي ستُوزن، والفلاح لـمَن ثقلت موازينه، والخسران لِـمَن خفّت موازينه.

نؤمن بذلك إيمانا يقينيّاً مُجمَلاً، ولا نتكلّف تصوّر الميزان ولا كيف يوضع ولا الأعمال كيف توزن، كيف يوزَن إيمان المؤمنين وصلاة المصلّين وصيام الصائمين، وكيف سيوزن كفر الجاحدين وكذب الكاذبين وإجرام المجرمين، فكلّ هذا مِن غيب الآخرة الذي نؤمن به ولا نتخيّل تفاصيله، لأنّ لعالَم الآخرة أحوال غير أحوالنا ونظام غير نظامنا، فنؤمن بما أخبر الله به، ونعلم أن الله إنما أخبرنا بكتابة الأعمال ووزنها، لتأكيد تحقّق العدل يوم القيامة، فلا يترك الله ذرة تضيع يوم الحساب،

وإن كانت حبة من خردل وهي أصغر ما تراه العيون، وأخَفُّ ما يوزن في الميزان، ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وعندما يعي الناس حقيقة حالهم وأن هذه هي الحياة بعد الحياة، وأن هذا هو يوم الدين، وهو اليوم الذي كانوا يوعدون، فيعلم المؤمنون أن هذا هو اليوم الذي كانوا يؤمنون به، ويعملون له، وينتظرون المصير إليه، ويوقن الجاحدون المجرمون أنّ هذا هو اليوم الذي كانوا ينكرونه ويكذبون به، فتظهر بشائر الفوز على وجوه المؤمنين، وظلمة الحسرة والندم على وجوه المجرمين، حتى تكاد تنطق وجوههم بمصائرهم، فهذه وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة، وتلك وجوه عليها غبَرة ترهقها قترة، وهذه وجوه ناعمة، وتلك وجوه خاشعة بائسة، وهذه وجوه ناضرة، وتلك وجوه باسرة، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

فطلائع السعادة والشقاء تستقبل الناس من بعثهم، فهذا السواد طليعة العذاب، وهذا البياض هو طليعة الرحمة، ثم تأتي مراحل عرض الكتب

والحساب ووزن الأعمال، لتنتهي بهم إلى مصيرهم، وتحقّقه وتؤكده لهم أو عليهم.

أ- إعطاء الناس كتبهم:

إن من عدل الله الكامل في عباده أنه لا يحاسبهم بعلمه المحيط، فهو عَزَّوَجَلَّ المطّلع على أعمالهم والعالم بما في ضمائرهم، ولكنه يحاسبهم وهو العليم بهم، بما كتبته ملائكته من أعمالهم، وسوف يقرؤونه، ويجدون ما عملوا حاضراً، في كتابهم الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلّا أحصاها، وستُنشر هذه الصحف ويظهر ما فيها: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، إنه يوم عصيب حيث تُنشر صحف الأعمال فلا تعود خافيةً، ولكنْ ظاهرة معلنة، وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى، فكم من سَوأة مستورة يخجل صاحبها من ذكرها ثم إذا هي في ذلك اليوم منشورة مشهورة! إنّ هذا النشر هول من أهوال ذلك اليوم، حين يُكشف المخبوء، ويظهر المستور، ويَفتضح المكنونُ في الصدور، إنه يوم عسير ويوم ثقيل.

وسيعُطى السعداء كتبهم بأيمانهم ويُعطى الأشقياء كتبهم بشمائلهم، وعند إعطاء الكتب تُسمع صيحتان متناقضتان، إحداهما لمؤمن جذلان طروبٍ مُسفر الوجه، قد أوتي كتابه بيمينه، وصَيحةٍ أخرى نادمةٍ متحسّرة لمجرمٍ، كالح، حزين، قد أوتي كتابه بشماله، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٣]، إنّك تكاد ترى المشهد تكاد تسمع الهتاف، صرخة الفرح وصيحة الفوز، في ذلك اليوم العصيب،

وبين تلك الجموع الحاشدة: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، هل تذكرت فرحة الأطفال إذا أخذوا شهادات نجاحهم وأتوا من مدارسهم إلى بيوتهم يعلنون فرحهم ونجاحهم قبل أن يصلوا إلى أهلهم؟ إنه مشهد يذكّر بهذا المشهد، ولكن شتّان بين فرحة عابرة في عمر الطفولة، وفرحةِ فوزٍ كبير في أبد الخلود.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]، إنها صيحة التفجّع والتحسّر في موقف الحسرة، وصدمة الفجيعة حتى يتمنى أنه كان عَدَماً، وأنه لم يشهد حساباً ولم يُؤتَ كتاباً.

وفي هذه الكتب أعمال العباد يرونها أمامهم مكتوبة يقرأ كلٌّ في كتابه ما أسلف من أعماله، ولِذا يُشدَه المجرمون إذا رأوا أعمالهم التي عملوها مكتوبة مُحصاةً: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]. وهذه الكتب توثيق لأعمال العباد وإحصاء لها: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢]. وبذلك تقوم الحجّة على كلّ إنسان، ويظهر عدل الله فيهم، فقد حُفظت أعمالهم وكتبت حين عملوها، ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ١٠-١٢]. وعلمه محيطٌ بكلّ شيء ولكنه لا يحاسِب بعلمه، وإنما يقيم عليهم الحجة بالكتاب والـمُساءلة، فيعرض عليهم كتبه.

ويصف القرآن عرض الكتب فيقول: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وهنا تعظم الحسرة على المكذّبين والجاحدين، وقد رأَوا ما قدّمت أيديهم وما سلف من أعمالهم، وسوف يتمنَّون لشدّة الحسرة أنّهم كانوا عدَماً، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. وسيتمنَّون أن يدركهم الفناء قبل أن يحاسَبوا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. وسيتذكّرون ما أسلفوا من كفر وإجرام، ويعضّون على أيديهم ندماً على ما قدّموا من سيئ العمل، ويتمنَّون أنهم لم يفعلوا ما فعلوا، ولم يعرضوا عن الحقّ عندما دُعوا إليه، ولم يتّبعوا مَن فتنوهم وأضلّوهم، وأنّى لهم التمنّي وقد ذهبتْ فرصة العمل وحقَّتْ ساعة الحساب والجزاء، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

ويسألهم الله عن أعمالهم ويناقشهم عند حسابهم.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

ويُسأل المكذبون عن تكذيبهم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٣، ٨٤]. وهذا سؤال مناقشة وتقرير ولوم وتقريع، تقدمةً للحساب والعقاب.

ومع إحصاء الأعمال وكتابتها في إمام مبين فإن هناك مَن يظنّ أنّ في الإنكار نجاةً، وفي الكذب مهرباً، فيكذبون بين يدي الله، ويحلفون وينكرون ما كُتب عليهم، كما كانوا يكذبون ويحلفون في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

فإذا كابروا هذه المكابرة وأنكروا هذا الإنكار أنطق الله أعضاءهم فتشهد عليهم بما عملوا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

إنّ يوم الحساب هو يوم العدل، ومن عدله سبحانه أن تقوم الشهود على الإنسان من نفسه.

إن الله الذي أنطق الألسنة فتكلّمت في الدنيا قادرٌ أن يُنطق الأعضاء والجلود فتتكلم في الآخرة، وتشهد على الجاحدين بما عملوا وما أنكروا،

وبذلك يتحقق خزيهم وينقطع إنكارهم، ويا لَلمفاجأة بسلطان الله الخفّي يَغلبُهم على أعضائهم، فتُلَبِّي وتستجيب وتقول باستسلام لإرادة الله: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١]، ولم يكن يخطر ببالهم أنها ستشهد عليهم، وما كانوا يستطيعون أن يستتروا عنها وهي معهم لا تفارقهم، وهكذا خدعهم الظن الأثيم، وقادهم إلى سواء الجحيم.

وقد ذكر النبي ﷺ هذا المشهد، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ يَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِداً مِنِّي. فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُوداً. فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وَسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»[(١)].

ب -الحساب اليسير:

وهناك من المؤمنين مَن يحاسبهم الله حساباً يسيراً يعرض عليهم أعمالهم وهفواتهم ليُظهر لهم جميل ستره وكريم مغفرته، وهذا حسابُ عرضٍ، وليس حساب مناقشة وتعنيف، قال ﷺ: «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**». فقالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أليس قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال: «**لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»[(٢)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٦٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٧٦).

وقد ذكر ﷺ بعض مشاهد الحساب اليسير، والتي تدل على كرم الله وجميل ستره، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»[(١)].

ونلاحظ قول النبي ﷺ: «أن الله يضع عليه كنفه»، أي: ستره وحجابه عن الناس، فعرض هذه الذنوب على العبد وحده، لا يراها الناس حوله، ولا يُحرج باطلاعهم عليها، بل يتمُّ الحساب في كنف ستر الله إكراماً لهذا المحاسَب وتيسيراً للحساب.

وقال ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: نَعَمْ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا»**. قال الراوي: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَكَانَ يَقُولُ: «**ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً**»[(٢)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٤١)، «صحيح مسلم» (٢٧٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٧١)، «صحيح مسلم» (١٩٠).

ج- التخاصم بين المتبوعين وأتباعهم:

ومن أعجب مواقف القيامة ذلك الجدل العنيف والخصومة الشديدة بين المشركين ومعبوداتهم، وبين المتبوعين وأتباعهم حين تتكشّف الحقائق وتسقط أقنعة الزيف فيتبرّأ المعبودون من عُبّادهم، ويصف الله هذا المشهد المخزي والخصام الشديد حين يتبرأ هؤلاء المعبودون والذين كان المشركون يتوجهون إليهم بالعبادة ويصفونهم بصفات الإلهية، ويدّعون لهم المكانة العالية والقدرة الغالبة، فإذا بهم في مواجهةٍ معهم وبراءةٍ منهم ومن عبادتهم، ويظهر زيف الإلهية ممّن ادعاها منهم، فقد زال ملك ذاك الذي غرّه ملكه فقال لإبراهيم: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وتهشّمت كبرياء فرعون الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. لقد ذهب ملكهم وضعفت قوّتهم، وذلّت كبرياؤهم، ولم يبقّ إلّا ملك الملك الحقّ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. ويصف الله هذا المشهد في كتابه فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

ويتبرأ مَنِ ادُّعِيَتْ لهم الألوهية ولم يدَّعوها، فيتبرؤون من هذه الفرية ومن افتراها.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦، ٨٧].

وتتبرأ الملائكة ممّن كانوا يؤلهونهم ويعبدونهم: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

ويتبرّأ عيسى ممّن ادعوا الألوهية له ولأمه وينزّه اللهَ ويعظّمه حينما يسائله ربّه: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وكما تتبرأ الآلهة المزعومة ممّن ألّهها فسيتبرّأ المتبوعون ممّن اتبعهم، وتتحول هذه التبعية إلى خصومة مريرة، ومجادلة عنيفة في يوم الفزع والهَول وشدّة الحساب، قال تعالى يصف هذه المراجعة الجدلية بينهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧]، ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ [سورة ق: ٢٧، ٢٨].

د- سعادة المؤمنين وشقاء المجرمين يوم القيامة:

يبيّن الله تعالى في كتابه الكريم أنه سيُقيم العدالة، فيُكرم المحسنين، ويقتصّ من الظّالمين، ويجزي كلَّ نفس ما كسبت: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٥-١٧].

وهذا اليوم الثقيل الطويل والذي مقداره خمسون ألف سنة يقفه الناس في شدة رهق وخوف وقلق سيكون قصيراً يسيراً على المؤمن

كتدلّي الشمس للغروب إلى أن تغرب، قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْـمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ**»(١).

وسوف يستبشر فيه الفائزون وتُشرق وجوههم بالفرح والرّضا، والبشائر تتلقّاهم مع الملائكة في ساعة فزع الناس وذهولهم بالطمأنينة والسكينة والأمن، ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وتشرق الأنوار أمامهم، والبشرى بالجنّة تُزفّ لهم: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]. إنها الوجوه المستبشرة الـمُشِعّة بالنور، يفيض أمامهم وعن أيمانهم طلائع الكرامة والبُشرى والنضرة والحبور.

وما أعظم سعادتهم وحبورهم حين يسيرون في موكب الفائزين يتقدمهم النبي الكريم ﷺ، وتسعى الأنوار أمامهم ومِن حولهم، كرامةً من الله لهم، وتقدمة بالبُشرى والتكريم: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨]. وسوف يقدمون على الرحمن وفداً في كرامة وحسن استقبال: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥].

وما أشدّ حسرة الخاسرين المجرمين في هذا اليوم وهم يرون مصيرهم البائس ويوقنون بالعذاب الأليم فيطول ندمهم وتحسّرهم على ما مضى

---

(١) «مسند أحمد» (١١٧١٧).

من إجرامهم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، و﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

وكيف لا تجِفُ القلوب وتخشع الأبصار وقد حقّت الحقائق، وكُشف الغطاء، ورأى كلّ إنسان ما قدّمت يداه، ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. إنّ الكافر يتمنّى العدم بين يدَي هذا العذاب الـمَهُول.

إن الذي يريد الآخرة لا بُدَّ أن يسعى لها سعيها، وينهض بتبعاتها، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. وما يقدّمه الإنسان في هذه الحياة العاجلة سيلاقيه في الحياة الآخرة، وسيُلاقي ربه بما كان منه، وبما مات عليه، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»(١).

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٧٨).

خامساً: لا ظُلمَ اليوم

إنّ الجزاء الأخروي جزاء عادل، فلا تُظلم نفسٌ شيئاً، ولا يُعاقب الله أحداً بذنب لم يفعله، ولا يعاقِبه بأكثر مما يستحقّ، فالله حكم عدلٌ، ورحمتُه سبقت غضبَه، ولا يوْقِع العقوبة إلا على مَن يستحقّها باعترافه وإقراره، ولذا يبيّن الله لعباده أن الجزاء في يوم القيامة بما كسبتْ كلُّ نفسٍ، فهو يوم العدل الذي لا ظلـمَ فيه، فقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

وإنّ كلّ من يجازَون بالعذاب يوم القيامة إنّما يُساقون إليه بعد أن يقرؤوا كتب أعمالهم، وتوزن سيّئاتهم، ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وسيعترفون على أنفسهم بذنوبهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١].

ومن أجلى صور العدل الإلهي أن الله عَزَّوَجَلَّ يحاكم الناس بما كُتب من أعمالهم وأحصي عليهم، وتشهد عليهم الملائكة الحفَظة، والكتب المحصاة، وأنّ من أنكر منهم شهدت عليه جوارحه وقامت الحجة عليه من جسده، ثم تنصب الموازين، وتوزن الأعمال، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وكان يكفي أن يحكم على الناس بعلمه، فهو بكل شيء عليم، وقد اطلع على أعمالهم حين عملوها، وعلم بها قبل أن يعملوها، وإذا حكم فلا معقّب لحكمه، لكنه جعل هذه الكتابة والميزان والإشهاد لقيام الحجة وقطع المعذرة وإحقاق الحقّ وإقامة العدل.

ولا يُلقى أحد في النّار حتى تقرِّرَه الملائكةُ بأن الرسالة قد بلَغَتْه، والحجةَ قد قامتْ عليه، قال تعالى عن جهنم: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١].

لقد أقـرّوا أن الرسالة بلغتهم وافية كافية، ولكنهم لم يستخدموا أسماعهم فيصغوا إليها، ولم يستخدموا عقولهم فيتفكروا فيها، فكأنهم عاشوا حياتهم لا يسمعون ولا يعقلون.

١- مَن لم تبلغه رسالة الرسل:

وقد أخبر سبحانه أنه لا يمكن أن يعذّب مَن لم تبلغه رسالات الرسل وتقُمْ عليه الحجة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وسيقيم الله عليهم الحجة يوم القيامة ويستنطقهم بالشهادة على أنفسهم، فيخاطب الإنس والجن جميعاً: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. فلا مجال في ذلك اليوم لغير الاعتراف والشّهادة على النّفس باستحقاق العذاب.

وهذا يبين أنَّ مَنْ لم تبلغه رسالات الرسل فليس بمستحِقٍّ للعذاب، وكذا مَن بلَغتْه بصورة مشوَّهة تمنع من قبولها.

فهؤلاء الطّيّبون الغافلون والجهلة والأميون المتفرقون في أنحاء الأرض الذين لم تبلغهم الرسالة الرّبّانية، ولو بلغتهم لاتّبعوها، ولم يمنعهم كِبْر ولا جحود، فإنّهم بمعزلٍ عن هذا العقاب الأليم، ولن يعاقب الله أحداً لم يعرف الحق، ولم تبلغه دعوة الرسل وحقيقة دينهم.

وإنّما يستحق العقوبة من عرف الحق فأعرض عنه، وبلغته النذارة صحيحةً صريحةً فكذّب بها، واستكبر عنها.

ويوم القيامة لن يَدَّعي أحدٌ أنه ظُلِم، أو جوزي بذنب لم يفعله، بل كلّهم سيعترفون بذنوبهم، وتشهد على المنكرين جلودهم وجوارحهم: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

ولن يطلب أحد أن تعاد محاكمتُه لأنها لم تكن عادلة، ولكنهم سيطلبون فرصة أخرى وحياةً يعودون إليها ليعملوا غير ما عملوا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

إنهم إنما طلبوا فرصة أخرى لأنهم أدركوا عظم جرمهم الذي اقترفوه، وخطيئتهم التي عملوها، وأنه لا حجة لهم ولا عذر، ولذا فإنهم لن يقولوا: «إنا لا نستحق هذا العذاب». أو: «لم نفعل ذلك الذنب». فقد أقروا بذلك كله، ولكن طلبوا أن يُعادوا إلى الحياة كرّة أخرى حتى يصححوا خطأهم، ويعملوا صالحاً بعد أن عملوا سيّئاً، ولكنها أمنية فات وقتها، فالحياة فرصة واحدة لا تتكرر، أعطى الله فيها حرية الاختيار وفرصة التوبة وتدارك الخطأ إلى آخر لحظات العمر، فمن أضاع هذه الفرصة جنى على نفسه وسعى إلى النار برجله.

وإنّ ربنا عَزَّوَجَلَّ قد حرّم الظلم بين عباده، وقبل ذلك حرّمه على نفسه فقال في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فَلَا تَظَالَمُوا**»[1]. وقال عَزَّوَجَلَّ في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

٢- الرحمة في يوم الشدة:

إن ما ذكره الله من أهوال القيامة، وشدّة الموقف، وعسر الحساب، وما يلاقيه الخاسرون من حسرة وندم فإن كل ذلك لمن أجرم وتمرد،

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

وعاش حياته الدنيا مُعرِضاً عن الله، مُستخِفّاً بأمره، لا يرجو لقاءه، فيلاقي اليوم الذي طالما استبعده فإذا هو قريب، ويلاقي الحساب الذي طالما استخف به فإذا هو شديد، وسخر بمن أنذره فإذا به يواجهه، فيعترف بحسرة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

إن الله عَزَّوَجَلَّ قد وسع فرص الفوز والنجاة ويسّرها وكثّرها ليسهل اكتسابها، وضيّق طُرق الخسارة والهلاك ليسهِّل اجتنابها، فلا يقع في الهلكة إلا مَنْ قصدها وسعى إليها، وأعرض عن الحق وابتعد عنه، وقد قال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ أَبَى**»، قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[1].

ومن تيسير الله طريق الفوز والنجاة أنّه لم يكلف نفساً إلا وسعها، ولم يكلف نفساً إلا ما أتاها، ولم يجعل في الدين من حرج، وأنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر.

ومن رحمته بعباده مغفرته لذنوبهم إذا استغفروا، وتوبته عليهم إذا تابوا، وكلَّما أخطأ الإنسان أو اقترف ذنباً ثم استغفر غفر الله له، ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وهو عَزَّوَجَلَّ يُطمِع الخاطئين بمغفرته، وينهاهم عن اليأس من رحمته فيقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وفتح لهم طريق السلامة والتجاوز والمسامحة فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ

(١) «صحيح البخاري» (٧٢٨٠).

ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ومغفرة الذنوب هي علاقة مباشرة بالله عَزَّوَجَلَّ، لا وسائط فيها ولا شفاعات من أحد، ولا اعترافات لأحد، وإنما يقصد الخاطئُ ربَّه بطلب المغفرة والتوبة، فيفرح الله به، ويتوب عليه، ويغفر له، قال ﷺ: «**إِنَّ عَبْداً أَصَابَ ذَنْباً فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً، قَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثاً، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[1]. أي كلما أذنب ذنباً ثم ندم وتاب واستغفر غفرت له، والله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يتوب على عباده لا أن يعذبهم: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٧].

ومع غنى الله عَزَّوَجَلَّ عن عباده وافتقارهم وحاجتهم إليه فإنه يفرح بتوبة التائب إذا تاب، ونجاتِه من خطيئته إذا فارقها، قال ﷺ: «**لَـلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ رَجُلٍ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ، فَأَضَلَّهَا، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الـمَوْتُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي أَضْلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتُ فِيهِ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ،**

(١) «صحيح البخاري» (٧٥٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٨).

فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»[1].

وإنَّ رَبّاً يفرح بتوبة عبده ونجاته هذا الفرح لا يمكن أن يعذبه ويعاقبه إلا إذا هرب منه، وتعرَّض لغضبه، واقتحم عذابه.

وكثيراً ما يذكر الله العقوبة مقرونة بفرص الرحمة والعفو والمسامحة، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

فلا تَنال عقوبته إلا من أعرض عن رحمته ومغفرته، أما مَنْ تَعرَّض لعفوه ومغفرته الواسعة شملته: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، ومَنْ تعرض لرحمة الله الواسعة فإنها تغمره، فرحمته وسعت كل شيء.

وقد قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]، فمع أنه يُحذره من العذاب إلا أنه يذكِّره باسم ربه الرحمن، وأن هذا الرب الجليل رحمن، ومِن شأنه أن يرحم، فكيف تُعرِض عن رحمته وتتعرض لعذابه؟!.

ومن رحمته بعباده أن الحسنات يضاعف ثوابها، وأما السيئات فلا يعاقب عليها إلا بقدرها، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فالحسنة يضاعف

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٤٤).

ثوابها عشرة أمثالها، والسيئة بمثلها، وقد ذكر النبي ﷺ كتابة الحسنات والسيئات، فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**»[1].

فالحسنات سبيلها القبول والمضاعفة والتكثير، والسيئات يجازى بمثلها أو تُغفر، فالهالك هو من كانت آحاد سيئاته أكثر من عشرات حسناته، ولا يهلك على الله إلا هالك.

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٩١)، و«صحيح مسلم» (١٣١).

خلاصات وصف القيامة والحساب

١ ـ صوَّرتِ الآيات أهوال يوم القيامة، وهو هولٌ يشمل الطبيعة كلها بزلزال الأرض، وانشقاق السماء، وتفجير البحار، وانتثار الكواكب، وبعثرة القبور، وفزع النفوس وذهولها، في مشهد يجمع هذا كلَّه، ويريك هؤلاء وأولئك كأنك تراهم بل كأنك فيهم وبينهم.

٢ ـ النفخ في الصور هو بداية الحياة الأخرى، حيث يُبعث الناس من قبورهم، ويساقون إلى محشرهم؛ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

٣ ـ في يوم القيامة يجمع الله الخليقة التي عبرت في تاريخ البشرية الطويل في أحقابها المتعاقبة فيجتمعون جميعاً أولهم وآخرهم في ساحة الحساب، ولذا سمي يوم القيامة يوم الجمع، فهو الاجتماع الهائل، الجامع للبشرية كلها، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

٤ ـ حينما يرى الناس حقائق القيامة وطلائع الحساب والجزاء تظهر بشائرُ السعادة على وجوه السعداء بياضاً ونضرةً، وكآبة الشّقاء على وجوه الأشقياء سواداً وعبوساً وحسرة.

٥ ـ من مشاهد القيامة عرض الأعمال على الناس، فيرون ما عملوا من خير، وما اقترفوا من سوء مكتوباً أمامهم، فيحاسبون على أعمالهم، وتُنصب الموازين، وتوزن الأعمال، وكل ذلك ليتّضح الحق، فلا تُظلم نفسٌ شيئاً، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

٦ ـ من مشاهد القيامة حين تحق الحقائق وينكشف الزيف ويبطل الباطل، ذلك الجدل العنيف بين المشركين وآلهتهم، والمتبوعين وأتباعهم، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

٧ ـ يُعطى الناسُ كتبَهم، فيأخذ المؤمنون كتاب السعادة بأيمانهم مستبشرين، ويُعطى المجرمون كتاب الشقاء بشمالهم متحسرين نادمين.

وعند الحساب لن يُظلم أحد، فلن يُعاقَب بذنبٍ لم يعمله، ولن ينكِر عملاً عمِله، وسوف تشهد عليه أعضاؤه، ويعترف بذنوبه، فهو يوم العدل الأكبر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، ولن يقول أحدٌ: إني ظُلمت، ولكن سيتمنّى لو عاد إلى الدنيا وعمل صالحاً غير الذي كان يعمل، وهي أُمنية فات أوانها؛ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

٨ ـ عندما يُقضى بين الناس بالقسط، وتوفَّى كل نفس ما كسبت، ويُساق النّاس إلى مصائرهم فمنهم شقي وسعيد، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ

فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٨].

٩ ـ يوم القيامة يوم العدل المطلق فلن تُظلَم نفسٌ شيئاً، ولن يعاقَب أحد إلا بذنبٍ فعله واعترف به، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ويومُ القيامة هو يوم الحق، ويومُ القسط، ويومُ العدل، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٧]، ولن يعاقَب إلا مَن تراكمَتْ سيّئاته، وأحاطت به خطيئته، وسعى إلى النار بقدمه.

الفصل الثاني: الجنة وأهلها

أولاً: سعة الجنة

ثانياً: على باب الجنة

ثالثاً: مساكن الجنة

رابعاً: الحياة الأسرية في الجنة

خامساً: طعام أهل الجنة ولباسهم

سادساً: النعيم النفسي لأهل الجنة

سابعاً: صفات أهل الجنة

الجنة وأهلها

جاء وصف الجنة في القرآن في مشاهد تنقلنا إلى أنواع من النعيم الذي يتنعم به أهل الجنة، ومنه نعيم حسي في جمال المشاهد والقصور والأنهار، وطيبات الرزق التي يتلذذون بها، ومنه نعيم نفسي من سلامة القلوب من الغل والحقد، وتذكر فضل الله عليهم بالهداية إلى طريق الجنة، وتلاقيهم وتزاورهم بمن يحبون؛ ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، واكتمال هذا النعيم الوجداني برضا الله عنهم، وكلامه معهم، ونظرهم إلى جلاله وعظمته، مع أنواع المسرات، والأنس المتجدد الذي لا يطرأ عليه الملل بالاعتياد، وكل المشاهد التي تصور أنواع النعيم في الجنة إنما هي صور تُقَرّبها للخيال بنماذج مما نعرفه في حياتنا، لكن نعيم الجنة في حقيقته أعظم من أن يتخيله البشر في أفق هذه الحياة المحدودة، ولذا قال تعالى عن نعيم أهل الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال الرسول ﷺ في ما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ:

«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١].

ولا تسلْ عن لذّة الدهشة والانبهار أمام نعيمٍ لم ترَ مثله عينٌ، ولم يخطر من قبل في خيال، إنّه نعيم مذخور لم يطّلع عليه أحد، ولم يخطر على قلب أحد، ويظلّ مستوراً حتى يُكشف لأصحابه عنه عند لُقياه، إنّه اللقاء الكريم في حضرة الله حين يتولّى إعداد ما يدّخره لهم من جزاء في عناية ورعاية وإكرام، فإذا ما يتلقّونه أعظم ممّا كانوا يؤمّلونه، نعيمٌ تجاوز أمنياتهم، وتعدّى خيالَ خواطرهم.

ومن تشريف الله للجنة وأهلها أن أضافها إلى ذاته المقدّسة فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. وهي إضافة تقتضي التشريف والتقريب، ولـمّا سألت امرأة فرعون ربّها قالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، فبيتٌ في الجنة هو عند الله قرباً وشرفاً، فالجنّة جوار الله، وساكنها مع الله وعنده، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

ومن إكرام الله لأهل الجنة أن الجنة تقرَّب عند دخولها: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣١]، وتُفتح لهم أبوابها: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [سورة ص: ٥٠]، وأنّ الملائكة ترحّب بهم وتبشّرهم عند الدخول:

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٤٤).

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وأنهم يدخلونها متقاربين في الخَلْق وفي العمر، فليس فيهم طويل وقصير، ولا شاب وشيخ.

وفي الجنّة سيقع تغيّر كبير على أجسام الرّجال والنساء وهيئاتهم، وهو تغيُّرٌ نحو الأكمل والأشرف، بما يناسب ترف الجنّة ونعيمها، وحياة الخلود فيها؛ فكلهم على صورة أبيهم آدم في أتم خلق وأحسن تقويم كما قال ﷺ: «**كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً**»(١)، وكلهم في عمر الفتوة والقوة في سن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قال ﷺ: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْداً، مُرْداً، بِيضاً، جِعَاداً، مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ**»(٢).

ومن كمال الإكرام والإنعام أن أهل الجنة يدخلونها جماعاتٍ غفيرة، ويساقون إليها زُمراً: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، ففي الاجتماع تكْبُر النعمة، ويتسع النعيم، وأنهم يدخلون الجنة بصحبة أسرهم وأقاربهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، فالإنسان يسعد بسعادة آبائه ورفقة زوجه وسرور ذرّيته،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٢٦)، «صحيح مسلم» (٢٨٤١).

(٢) «مسند أحمد» (٨٥٠٥) عن أبي هريرة، و«سنن الترمذي» (٢٥٤٥) عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. و«جُرداً»: جمع أجْرَد: وهو من لا شَعْر على جسده، و«مُرْداً» جَمع أَمْرَد: وهو مَن لا شعر على ذقنه، و«مُكَحَّلين»: أي عيونهم تكون كأنّها مكحَّلة، خِلقةً دون أن يستعملوا الكُحل.

إنها احتفالية الدخول الجماعيّ للجنة، تتضاعف بها النعمة والسرور، ويذكر الله رفقتهم في الجنة إذا استقروا فيها: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. فحسب الإنسان أن يكون مع هؤلاء الطيّبين الـمُكرَمين من النبيين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وهو تكريم يناسب ذوي النفوس الطيّبة والقلوب النبيلة، إنّ هذا الوفد الجماعي إلى الجنة والرّفقة الطيبة فيها تزيد مساحة النّعيم، فالنعمة تكبر بالمشاركة.

وفي مقابل ذلك بؤس المجرمين وهم يُساقون إلى جهنم وِرْداً، لا يشعر أحدٌ بمن معه، ولا يخفّف ألمه مشاركة غيره له، فالأمر أعظم من ذلك، ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وكثيراً ما يأتي مع وصف الجنة وصف أهلها إمّا مُجمَلاً مثل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أو مفَصَّلاً بذكر صفاتهم وأعمالهم، وتنوَّعَ الحديثُ في القرآن عن الجنّة ونعيمها وذكر صفات أهلها، فمن ذلك:

أولاً: سعة الجنة

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

إنّ البشر من أولهم إلى آخرهم عبروا هذه الحياة على كوكب الأرض الذي هو كالهباءة في مجموعات الكواكب والمجرات الكونية الهائلة.

أما الجنة التى سيعود إليها المؤمنون في آخرة الخلود فإن عرضها بسعة الكون أرضه وسمائه.

يا لله! هذه الكواكب والمجرات والأبعاد الهائلة بمليارات السنوات الضوئية هي جزء مما ندركه من سعة هذا الكون، والجنة أوسع من ذلك.

فكيف سيتفرّق أهل الجنة في هذه الأبعاد الواسعة الشاسعة؟

والجواب باختصار: أنها مقاييس عالم الآخرة، فلا ننقل مقاييس الدنيا إلى الآخرة، فإن الآخرة لها عوالمها وأحوالها التي لا تقارن بضيق الحياة الدنيا وقِصَر عمرها.

كما أن هذه السعة الهائلة تتناسب مع عمر الخلود غير النهائي، فأهل الجنة سيعيشون عمراً لا ينتهي أمده، في جنةٍ لا تتناهى سعتها، فتستوعب سعتها غير المتناهية آماد أعمارهم غير المتناهية، وتستوعب أنواع النعيم الحافل في هذا المجال الفسيح، وقد وصف الله استيعاب الجنة واتّساعها لأنواع النعيم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]. وعندما يصف الله العلِيّ الكبير مُلْكاً بأنه مُلك كبير فإنه أوسع من تصوّراتنا وتخيّلاتنا المحدودة بعالمنا الضيِّق وعمرنا المحدود، إنّ وصف الله للملك في الجنّة بأنه كبير يعني انفساحاً لا نُدرك مداه، وسَعةً لا نتخيّل أبعادها، فهو وصف يليق بقدرة الله وكرمه، وليس بتصوّرنا وإدراكنا.

وقد ذكر النبي ﷺ خبراً يدلّ على أنّ سعة الجنة وانفساحها أعظم مما يتخيله البشر في عالمهم الضيّق المحدود، وذلك حين أخبرنا عن أقلّ أهل الجنّة عطاءً وأدناهم منزلة فقال ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولاً، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْواً، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ. فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ. فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي وَأَنْتَ الـمَلِكُ**». قال الراوي:

فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: «**ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً**»(١).

يا لله! هذا آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وأدناهم منزلة، وأقلهم عطاءً، يكون ملكه فيها عشرة أضعاف هذه الدنيا التي نعرف، فهذه الأرض بكلّ خيراتها وغاباتها وجزُرها وبحارها وما فيها وما عليها ـ لهذا الأخير عشرة أمثالها- وله ما اشتهت نفسه ولذّت عينه، حتى يظنّ أن الله أعطاه ما لم يعطِ أحداً من العالمين، فيقول: ما أُعطِيَ أحدٌ مثل ما أُعطِيت.

فإذا كان هذا عطاء آخر أهل الجنة دخولاً إليها وأدناهم منزلةً فيها فكيف كان العطاء لـمَن دخلوا قبله وأُعطوا أكثر منه؟!.

أولئك الذين قرّبهم الله وأدناهم، ورفع منازلهم، وغرس كرامتهم بيده، وختم عليها فلا يُدركها خيال ولا يصوِّرها بيان، ولم ترَها عين، ولم تسمعْ بها أذن، ولا تُدرَك عظمتها وبهجتها إلّا حين يرونها وينالونها، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٧١)، «صحيح مسلم» (١٩٠).

ثانياً: على باب الجنة

وسيدخل أهل الجنةِ الجنةَ حشوداً إثر حشود، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]. فإذا جاؤوها فُتِحت لهم أبوابها، ورحّبت بهم ملائكتها، واستقبلتهم بالسلام والبُشرى، فتزفّهم إلى الجنة بهذا الترحاب الملائكي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وسيشتد الازدحام على أبواب الجنة على كثرتها واتساعها، فقد أخبر النبي ﷺ أن للجنة ثمانية أبواب[١]، وأخبر أن سعة كل بابٍ كما بين مكة وبُصرى أو كما بين مكة وهجر[٢]، وقال ﷺ: «**وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ**»[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٥٧).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٤). وبُصرى بلدة بالشام شمال المدينة، وهجر هي الأحساء في شرق المدينة، وبين كلٍّ مِن هاتين المدينتين ومكة أكثر من (١٠٠٠) كم.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٦٧).

وهذا الوصف لبيان السعة، وليس لتحديد المسافة، فعالم الآخرة ليس كعالم الدنيا، ولِذا ورد الوصف بما هو أكثر من ذلك، فقال عتبة بن غزوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلَقَدْ ذُكِرَ لنا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ[١] مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ[٢]. وهذا اليوم الكظيظ الزحام هو من أيام الآخرة، وليس من أيام الدنيا، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. فيا لله! كم سيدخل من هذا الباب! وكم سيدخل من بقية الأبواب! وفي هذا بشرى للمؤمنين بقبول الله لهم، وتجاوزه عنهم، فيزداد طمعهم في الجنة، ويعظم رجاؤهم فيها، وعملُهم لها.

ومن البشائر أن أكثر هذه الحشود الزاحفة إلى الجنة هم من أمة محمد ﷺ، فقد قال ﷺ لأصحابه: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟**» قالوا: نعم، وكبّروا فرحاً بهذه البُشرى. فقال ﷺ: «**أَما تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟**» فكبّروا، ثم قال: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[٣]. فكبّر الصحابة وفرحوا بهذه البُشرى النبوية.

وذلك أن أمة محمد ﷺ أطول الأمم أعماراً، وأكثرها أجيالاً، وأوسعها انتشاراً في الأرض، وفي هذا بشارة بانتشار الإسلام في أرجاء الأرض، ونحن نرى اليوم ربع سكان العالم من المسلمين، وأن الإسلام أكثر الأديان انتشاراً، وهذه من طلائع البشائر النبوية.

---

(١) المِصْرَاعَان: هما البابان المعلَّقان على منفذ واحد.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٦٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٥٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢١).

وستناديهم الملائكة على أبواب الجنة ويدعون كلّاً إلى بابه، قال ﷺ: «**فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ**»[(١)].

ومن المؤمنين من يُنادى من هذه الأبواب كلها، فتدعوه ملائكة كل باب ليدخل من بابهم، فقد سأل أبو بكر النبي ﷺ فقال: هل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**»[(٢)]. وهؤلاء الذين يُدعون من هذه الأبواب كلها هم السابقون إلى الخيرات، لكثرة أعمالهم وتنوعها، فلهم في كل باب من أبواب الخير نصيب، فيُدعون إلى الجنة من أبوابها كلها.

وشتّان بين أهل الجنة حيث يُدعون إلى الجنة ليدخلوها وأهل النار حيث يُدفعون إلى النار ليُلقَوا فيها.

فإذا دخلوا الجنة بقيت أبوابها مفتَّحة لا تُغلق، فإن الأبواب إنّما تُغلق لمنع مَن في الداخل من الخروج، أو منع من في الخارج من الدخول، وأهل الجنة لن يخرجوا منها، فهم لا يبغون عنها حِوَلاً، وكيف يخرجون من جنة عرضها السماوات والأرض؟! ولن يدخل عليهم أحد يكرهونه، وإنما تبقى الأبواب مفتَّحة، تدخل منها الملائكة تجدّد الترحاب بهم

(١) «صحيح البخاري» (١٨٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٢٧).
(٢) «صحيح البخاري» (١٨٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٢٧).

والبُشرى لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وهذا بخلاف النار التي تُغلق أبوابها على أهلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨]، أي: مُغلَقةٌ مسدودةُ الجوانب.

ثالثاً: مساكن الجنة

سُمّيَتِ الجنةُ بهذا الاسم وهو اسم الحدائق الملتفّة، ولم تُسَمَّ بالقصور ولا الخيام، لأن هذا الاسم يدلّ على النّضرة والبهجة والرّحابة والسعة وتنوع ما تحتويه من اللذائذ والـمُتَع[1]، ومنظر الجنان ممّا يجدّد السرور ويضاعفه، فالعيون المتدفّقة، والأنهار الجارية، والأشجار الباسقة، والثمار اليانعة فسحة للعيون، وبهجةٌ للنفوس، وجمال متنوِّع متجدِّد، فسمّى الله دار المؤمنين في الآخرة بهذا الاسم مع ما فيها -إضافةً إلى ذلك- من أنواع الملذّات، ففيها القصور الواسعة، والغرفات العالية، والأنهار الجارية، والعيون المتدفّقة، والأشجار الوارفة، ولذة الطعام، وترف اللباس، وجمال الأزواج والزوجات في أنواع من النعيم الدائم المتجدد.

وإذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ توجّهوا إلى منازلهم يقصدونها، ولا يسألون عنها، بل يعرفونها كأنهم كانوا يسكنونها منذ خلقوا، كما قال تعالى:

(١) «حادي الأرواح» لابن القيم (١٩١)، «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (١/ ١٩١).

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد: ٦]، وقال ﷺ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»(١).

والجنة درجات ومنازل بعضها فوق بعض، بحسب تفاوت المؤمنين في الفضل والمنزلة، قال ﷺ: «**فِي الجَنَّةِ مِئَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ الأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ العَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ**»(٢).

وقال ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**». قالوا: يا رسولَ الله: تلكَ منازلُ الأنبياءِ لَا يبلغها غيرهمْ؟. قَالَ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»(٣).

في معركة بدر استشهد مع رسول الله ﷺ شابٌّ اسمه حارثة، فجاءت أمّه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة؟ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال ﷺ: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى**»(٤).

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٤٠).
(٢) «سنن الترمذي» (٢٥٣١).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٥٦)، «صحيح مسلم» (٢٨٣١).
(٤) «صحيح البخاري» (١٣٧٤١).

وقد وجّه النبي ﷺ المؤمنين إلى سؤال الله أعلى منازل الجنة، فإن الله كريم، وعطاؤه جزيل، وإنعامه على عباده وافر غامر، فقال ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(١).

وجاءت أوصاف منازل الجنة في القرآن، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، إنها مساكن طيّبة تغمرها النضرة والخضرة، والأنهار تجري من تحت جِنانهم وغرفهم، أنهار متدفِّقة غامرة، لا ينظرون إليها عن بُعد، ولكنها قريبة كلَّ القرب، فهي تجري من تحتهم، وهذه الأنهار الجارية مشهدُ جمالٍ متجدّد، وحياة متدفّقة، وبهجة مستمرّة.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

إنّ هذه الغرف فوق الغرف تُصوِّر النعيم الـمُرتفع، والعُلوَّ والجمال والراحة الأبدية.

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٢٧٩٠).

رابعاً: الحياة الأسرية في الجنة

وفي الجنة نعيم آخر هو نعيم الزوجية الهانئة برحمتها وودها وسكنها، إنها الحياة الزوجية المحفوفة بطيب العيش وطمأنينته ورخائه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥-٥٨].

إنهم في شغل لكنه ليس شغل الكدح والتعب، ولكنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم، متلذذون متفكهون، ويضاعف هذه اللذائذ أنهم يتعاطونها مع زوجاتهم مستريحين متكئين على الأرائك الوثيرة في ظل وارف وفاكهة لذيذة.

فكيف هناء هذه الحياة الزوجية وكيف سرورها وكيف تتعاطى اللذة فيها؟!

وكل هذا في أمان من كل كدر فلا خوف ولا سأم، ولا موت ولا مرض، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

في الجنة سيلتئم شمل الأسرة المؤمنة على الحبّ والرّضا، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

ومن إكرام الله لأهل الجنة أنّه يرفع الأبناء إلى منازل الآباء وإن كانوا أقل منهم درجة، فيرفع الله الأبناء من غير أن ينقص من أجور الآباء، فضلاً منه وإنعاماً، حتى يكمل سرورهم، وتقرّ أعينهم باجتماعهم، قال ابن عباس: إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ المُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١]. قال: وما أنقصنا الآباء بما أعطينا البنين(١).

وهذا من بركة الحسنات والعمل الصالح، فإن أثرها يمتد وبركتها تسرى إلى الأبناء، كما قال تعالى عن اليتيمين اللذين حفظ الخضر كنزهما: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ٨٢]، فبسبب صلاح الأب سخر الله نبيين كريمين ليقيما جداراً يحفظ لهما مالهما المكنوز، وهذا من كرم الله حيث جعل الحسنة يمتد أثرها، أما السيئة فقاصرة على صاحبها يؤخذ بها ويرهن بذنبه ولا يؤاخذ به غيره.

وكما يرفع الله الأبناء إلى منازل الآباء الصالحين، فكذلك يرفع الآباء إلى منازل أبنائهم، والأزواج إلى منازل أزواجهم، فمن كرم الله أنه يرفع

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٩)، و«موسوعة التفسير المأثور» (٢٠/ ٦٤٢)، رقم: (٧٢٩٤١).

القريب الأدنى إلى منازل القريب الأعلى، ليكمل نعيمهم باجتماعهم، لما في طبع الإنسان من التأنس بأولاده وقرابته، وحبه الاتصال بهم.

وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصِّلاة، أنه إذا صار إلى الجنة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه ورفع إليهم، وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى[١].

وممن يرفعهم الله في الجنة إلى منازل أعلى من منازلهم؛ المتحابون في الله، فإن الله يرفع المحب إلى منازل محبوبه كرماً منه وفضلاً، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[٢].

لقد جعل الله هذه العاطفة الكريمة وهي محبته والمحبة فيه رابطة كرابطة القرابة، فيجمع هؤلاء المتحابين في الجنة ليتحقق أنسهم ويكتمل نعيمهم.

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٣١).
(٢) «صحيح البخاري» (٦١٦٩).

خامساً: طعام أهل الجنة ولباسهم

جاء ذكر طعام أهل الجنّة وشرابهم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

إنها ثمرات لكثرتها تشابهت في ألوانها وأشكالها، وتنوَّعَتْ في طعومها ومذاقها، وفي هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزيّة المفاجأة في كل مرة، وهي مفاجأة حلوة، وتفكّه لذيذ، حين ينكشف هذا التشابه عن تنوّع ولذّة جديدة.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ١٧-٢٨]. إن هذا مشهدٌ للسرور الجماعي الذي يتضاعف بالمشاركة، فهؤلاء المنعَّمون يشاركهم في هذا النعيم أزواجهم وذرّيّاتهم وأصحابهم، فيأكلون جميعاً ويشربون جميعاً، يتنازعون كؤوس الشّراب، لا تنازع خصام، ولكن تنازع رضاً هو التجاذب والتّبادل، زيادة في الصفاء، وتلذّذاً بالكأس المشتركة تُدار على الأصفياء، ولذا طاب لهم السّمَر، وجرى بينهم حديث الذكريات في الدنيا: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨]، إنّه تذكُّرُ اغتباطٍ وسرورٍ ومناجاة لذاذة وحبور.

وكما ورد ذكر الطعام جاء ذكر أنواع المشارب وآنيتها: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]، فهي آنية في غاية الجمال والصفاء، فهي من فضة لامعة، وفي صفاء وشفافية القوارير.

وأمّا شرابهم فيها فأنواع المشارب الصّافية والممزوجة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان: ٥].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨].

وهذا كله نعيم لم تعهده الأرض، فالآنية بأحجام مقدرة تقديراً يحقّق المتاع والجمال، وشراب يُمزج بالزنجبيل مرة، وبالكافور مرة، وتُملأ من عين جارية تسمَّى سلسبيلاً، لشدّة عذوبتها واستساغتها لدى الشّاربين، ويتلقَّون مع هذا النعيم الحسّي التكريم العُلوي وهم يتناولون شرابهم وطعامهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

ومِن شراب أهل الجنّة ما ذَكر الله في قوله:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٧]. فخمر الآخرة فيها لذّة الخمر ونَشوتها، وليس فيها صداعها وغيبوبتها.

وأما لباس أهل الجنة فجاءت الآيات تصف نعومته ونعيمه، وترفه ورفاهيته قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

فكل أنواع النعيم وافرة غزيرة، تجري عليهم بغير حساب، لا تُمنَع ولا تُقطع، إنّها تجري بأطايب الحياة التي كان الإنسان يتشهّاها في الدنيا ولا يجدها إلا بعناء وبمقدار، فإذا هي تجري بين أيديهم أنهاراً من نوع أجود، وطعمٍ ألذّ، ولا يطرأ عليها تغيّر ولا فساد، ومع هذا الطعام اللذيذ والشراب الهنيء

مغفرة من ربّهم، فلا عتابَ ولا حسابَ، وإنّما المغفرة والرّضا، وليكتمل مشهد النعيم جرت المقارنة بحال الخاسرين المعذَّبين: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. ليقترن التّلذّذ بهذه الطّيّبات بالاغتباط والفرح بالنجاة من مصير السوء وعاقبة السوء في عذاب الجحيم وشراب الحميم.

وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، فكل أنواع الفواكه التي نعرفها والتي لا نعرفها متاحةٌ لهم إذا دعوها أو اشتَهَوها.

ومن كمال هذا النعيم تنوّعه بحيث يلاقي رغباتهم مهما تنوّعت، ولذا تنوّعت أشجارها بما يناسب رفاهية الحضَر وتطلّع البادية، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣]، والسّدر والطّلح من أشجار البوادي، ولها شوق في نفوسهم.

وكما أنّ فيها القصور والجنان ففيها الخيام لـمَن كانت الخيام رغبة نفوسهم، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

وقد ذكر النبي ﷺ تنوّع هذه الشهوات لأهل الجنة فقال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِي الزَّرْعِ. فَقَالَ اللهُ لَهُ:**

أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟!. فَقَالَ: بَلَى، يَا رَبِّ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ. فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ، فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ[١] وَتَكْوِيرُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّوَجَلَّ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ»[٢].

ومن كمال النعيم دوامه، ولذا قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

فليس لثمارها مواسم، بل هي دائمة لا تنقطع، وليس لظلّها انحسار، بل هو دائم لا يزول، فلا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع، وهم في طمأنينة على ما هم فيه من النعيم لا خوفَ من فوته ولا نفاده.

متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة، والقطوف الدانية، في ظِلٍّ ظليل ناعمٍ هادئ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

ومن نعيمها اعتدالها، فليس فيها تقلّب في الحرارة والبرودة، ولكن غاية الاعتدال، كأنّما هي نسائم صباحات الرّبيع، قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، فليس فيها حر الشمس اللافح، ولا زمهرير البرد القارس.

ومن كمال النعيم سعي الخدم بينهم بأجمل صورة وأحسن هيئة، فهم في أعلى مراتب التكريم، يُخدَمون ولا يتكلّفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرّضوان والنعيم: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، فإذا كان هذا وصف الخدم فكيف بالمخدوم؟!.

---

(١) أي: فنبت واستوى وحُصد في طرفة عين. ينظر: «الفتح» (٥/ ٣٤).

(٢) «مسند أحمد» (١٠٦٤٢)، و«صحيح البخاري» (٢٣٤٨).

ومن كمال النعيم ورفاهيته رفاهية الفرش والأرائك والسُّرُر: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦].

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، فإذا كانت بطائن الفرش من إستبرق فكيف بكسوتها وما ظهر منها؟!.

سادساً: النعيم النفسي لأهل الجنة

وكما يتلذذ أهل الجنة بأنواع من نعيم المطاعم والملابس والقصور والجنان فإن لهم أنواعاً من النعيم النفسي الذي يفوق ذلك، ومن هذا النعيم:

١- تجلي الله عَزَّوَجَلَّ برضوانه على المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، إن الرضوان الإلهي أكبر من كل نعيم، وأقرُّ للعين من كل لذة، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أهل الجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟. فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ؟!. فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟. قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبداً**»[(١)].

ويعظم رضا الله عنهم حين يفيض عليهم وُدَّه وهو الودود عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]،

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٤٩).

وهذا نعيم عظيمٌ أن يعيش أهل الجنة الإحساس بوُدّ الله لهم، وهذا فضل من الله ونعمة لا تماثلها نعمة ولا نعيم، أن يرضى الله عنهم ويودّهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] فلهم في الجنّة كل هذه النِّعَم والـمُتع، ولهم فوقها ما هو أكبر منها، فرضوان الله أكبر من كل متاع يتمتعون به، وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لَتَصغر أمام هذا الرضوان الكريم، فإن نعيمهم لم يطبْ إلا برضوان الله عليهم، فهو الغاية التي قصدها العابدون، والنهاية التي سعى إليها المؤمنون، فرضا ربّ الأرض والسماوات أكبر من نعيم الجنّات.

وكما يغتبطون برضا الله عنهم وودّه لهم، فإنهم مغتبطون برضاهم عن ربهم، وبإكرامه الذي أكرمهم.

إن الإيمان بالغيب الذي عرفوه في الدنيا أضحى إيمان شهود، وعظمة الله وصفاته التي صدّقوا بها في الأيام الخالية رأَوها معاينة في الجنة، ومن ثَمّ فهم يلهجون بالثناء على الله وشكره وحمده على هدايته، وعظيم جزائه.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

٢- رؤيتهم لربهم عَزَّوَجَلَّ:

ومن مظاهر رضا الله عن أهل الجنة تقريبه لهم، وكشف الحجاب عنهم حتى يرَوه، وهم الذين طالما عبدوه بالغيب ولم يروه، وأحبوه واشتاقوا إلى لقائه، فإذا هم بحضرة قدسه يرونه، ويتنعّمون بكلامه معهم وكلامهم معه، ويَعظُم سرورهم بقربه، ويرضَون عنه كما رضي عنهم.

وقد ذكر الله ذلك في كتابه فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

إنها حال تعجز الكلمات عن تصويرها، ويعجز الإدراك عن تصوّرها، فهذه الوجوه الناضرة، نَضَّرَها أنها تنظر إلى ربّها بلا حجاب، إنها الغاية القصوى من نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة.

إن الإنسان تغمره السعادة ويغلبه السرور حينما يرى مظاهر الجمال في بعض ما خلق الله في كونه، في استنارة القمر، وخضرة الشجر، وربيع الأرض البهيج، في انسياب البحر، وامتداد الصحراء، وزينة الكواكب في السماء، فكيف سيكون السرور والفرح والرّضا حين ينظر هذا الإنسان إلى جمال مَن خلق هذا الجمال؟!، إلى جمال ذي الجلال، إنه مقام يحتاج إلى مدد من الله ليُطيقه، وإلى تثبيت من الله ليملك الإنسان فيه نفسَه، ليستمتع بالسعادة التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصوّر حقيقتَها إدراك، ولِذا قيل: إذا رآه آهل الجنة نسُوا نعيمَ الجنة.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والزّيادة هنا مضاعفة الثواب والنّعيم، وأعلاه رؤية وجه الله الكريم في الجنّة، فعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّوَجَلَّ» ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][(١)].

وهذا اللقاء الذي يجتمع له أهل الجنة كلهم يشعر كل منهم بخصوصيته برؤية ربه، حتى كأنما خلا به وحده يخاطبه ويناجيه ويباسطه ربّه ويُفيض عليه، فهي ليس رؤية خاطفة في زحام حاشدٍ، ولكن رؤية لها اختصاصها وخصوصيتها، ولِذا شبّهها النبي ﷺ برؤية الناس للقمر ليلة البدر لا يتزاحمون لرؤيته، ولكن ينظر كلٌّ منهم إليه وكأنّه قمره وحدَه، فعن جرير ابن عبد الله قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[(٢)]. ولِذا يظهر أثرها في سرور يطفو على الوجوه المبتهجة فإذا هي مستنيرة ناضرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]. فما ظنّك بوجوه نظرت إلى الله عَزَّوَجَلَّ وسمعت كلامه: كيف يتضاعف حسنها وجمالها؟!، ويزداد إشراقها ونورها، فأعظِمْ به من مجلس!، وأعظِم به من جمع!، فكن إلى ربّك مشتاقاً، وإلى رؤيته متشوّفاً، فقد كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول: «**أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**»[(٣)].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٨١).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٥٤)، و«صحيح مسلم» (٦٣٣).
(٣) «مسند أحمد» (١٨٣٢٥)، و«سنن النسائي» (١٣٠٥).

وقد جاء وصف هذا اللقاء العُلوي الأقدس، ومن ذلك أن أهل الجنة ينادَون: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَوْعِداً يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، قَالُوا: أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟. فَبَينَما هُمْ كَذَلكَ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَيَنْظُرُونَ فَإِذَا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ». فَلَا تُرَدّ هذِهِ التَحيَة بِأَحْسنِ مِنْ قَولِهِم: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، ومِنْكَ السَّلامُ، تَبارَكتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَام. فَيَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَغْشَاهُمْ مِنْ نُورِهِ لَوْلا أَنَّهُ قَضَى أَنْ لا يَحْتَرِقُوا لاحْتَرَقُوا مِمَّا يَغْشَاهُمْ مِنْ نُورِهِ، وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُحَاضَرَةً، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: أَلَا تَذْكُرُ يَا فُلَانُ يَوْمَ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟. فَيُذَكِّرُهُ بِبَعْضِ غَدْرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟. فَيَقُولُ: بَلَى، فَبِمَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ»[1].

يا لله! هل سنرى ربنا الذي كنا نعبده وندعوه، وكنّا نخافه ونرجوه؟ فهل سنلقاه ونراه؟إنه خبر الله وبشراه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

٣- تلقيهم بالبشرى:

وهذه البشرى تتلقّى هؤلاء المؤمنين الطيبين في سكرات الموت، فهم يغادرون الحياة تصحبهم كلمات الملائكة مطَمْئِنةً مبشّرة بالأمن والسّلامة من الخوف والحزَن، والبُشرى بالمنقلَب إلى الجنّة التي وُعدوا بها وعملوا لها:

---

(١) يُنظر: «سنن ابن ماجة» (١٨٧)، «سنن الترمذي» (٣١٠٥) «السنن الكبرى» للنَّسائي (١١١٧٠)، «السنة» لابن أبي عاصم (٥٨٥).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. ويوم القيامة حين يخرج الناس من قبورهم فزعين في يوم عظيمٍ شديد الهول تلقّاهم الملائكة بالبشرى والأمن من هذا الفزَع، ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وأعظم البشرى بشرى الله لهم، وأي سعادةٍ وغبطة وهم يتلقّون البشرى من الله عَزَّوَجَلَّ!.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

وعندما تقرب الجنة لهم يتوجّهون إليها زُمَراً حتى إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها، ورحّب بهم خزنتها، ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٖ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [سورة ق: ٣١-٣٤]، وفي الجنة يتوالى التّرحاب بهم، والسلام عليهم مزيداً في التحية والإكرام:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

سلامٌ من كل خوف، ومن كلّ تعب، ومن كلِّ كَدٍّ، سلام يتلقَّونه من الله، تحمله إليهم الملائكة وهم يدخلون عليهم من كل بابٍ يبلّغونهم التحية العُلوية إلى جانب ما أُعِدَّ لهم من تكريم.

وتتكرّر التحية والسلام حفاوةً وإكراماً، فأسماعهم منزَّهةٌ عن الصخب واللغو، وإنّما تتلقّى البشائر والتّرحاب: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ۝٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ٦١، ٦٢].

ومن أعظم الإسعاد النّفسي لهم أن يُذكِّرهم الله في الجنّة بصالح أعمالهم في الدّنيا مع أنّها نعمة من الله عليهم، ولكنه يشكرها لهم، فهو الشّكور، ويذكّرهم بها قبولاً لها، وإكراماً لهم: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. ويا لله! ما أعظم الغبطة والسرور تملأ نفوسهم! والله يذكّرهم بما أسلفوا في الدنيا من صالح العمل، وما كانوا عليه فيها من خير، إنه أعظم إسعاد للنفوس وإيناسٍ لها.

وكما يتلقى أهل الجنة التحايا والبشرى والسلام فإنّ كلامهم يفيض بالرّضا والحبور وحمد الله والامتنان له، وممّا ذكر الله من كلامهم: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

٤- سلامة قلوبهم من أحقاد الدنيا:

وفي الجنة تُسَلّ سخائم النفوس، ويُنزَع الغلّ من القلوب، وتزول الشحناء التي كانت في الدنيا بينهم، فيتقابلون في الجنّة أصفياء متوادّين، على سرر متقابلين، قال تعالى عنهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

٥- حديثهم مع بعضهم وتذكرهم أحوالهم في الدنيا:

ومِن نعيم الجنة مجالس الأنس وحديث المحبّة والـوِداد، حين يجلسون على سُرُرٍ متقابلين، وعلى الأرائك متّكئين، تُدار عليهم كؤوس الشّراب الـمُطهَّر فلا لغو فيها ولا تأثيم، فيستعيدون ذكريات حالهم في الدنيا، وإيمانهم فيها بالغيب، وخشيتهم من الله، ودعائهم له وثقتهم برحمته وبرّه، إنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم، وعاشوا مشفقين من حسابه، عاشوا كذلك، وهم في الدنيا عند أهلهم، حيث الأمان الخادع، ولكنهم لم ينخدعوا، وحيث المشاغل الـمُلهية، ولكنهم لم ينشغلوا، وها قد أجابهم الله فوقاهم العذاب، وأورثهم الجنة، فما أعذب هذا الحديث! وما أجمل تلك الذكريات! وما أعظم هذه الغبطة والسّرور!.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

ويتذكرون حالهم في الدنيا وما فيها من أحزان وهموم، وما فيها من نصب ولغوب، وكيف أذهب الله عنهم هذا كلّه، وأعقبهم بسرور لا يعقبه حزن، ونعيم وراحة لا يعقبها لغوب ونصب.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

٦- حديثُ أُنس لا لغوَ فيه:

وهناك لا فضولَ في الحديث في الجنة ولا صخب ولا جدال، إنما يُسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضي، صوت السلام، ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ٦١، ٦٢]، الجو سكون وهدوء، يغمره السلام والاطمئنان والود والرضا، والسمر بين الأحباء، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة نابيةٍ لاغية، هناك: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]. عالية في ذاتها رفيعة مجيدة، ثم هي عالية الدرجات، وعالية المقامات، إنه جو السعادة والتنزه عن كل كلمة لاغية، وهذه وحدها سعادة، سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا، وما فيها من لغو وجدل، وصراع وزحام، ولجاج وخصام، وضجيج وصخب، وهرج ومرج، ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن، والسلام الساكن، والود الرضِيّ، والظل الندي في العبارة الموحية: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ [الغاشية: ١١]، وتوحي هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين في الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو هي طرف من حياة الجنة، يتهيؤون بها لذلك النعيم الكريم، يوم يَحيون في هدوء وسكون، وفي ترفع وتنزه عن كل لَغْوٍ في الحديث، وكل جدل وكل مؤاخذة، ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

فهي حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل، فهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود، ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبًا ٣٥ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا﴾ [النبأ: ٣٥، ٣٦].

٧- حديثهم مع أهل النار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا

فمع بُعد أهل الجنة عن النار وأهلها فهم كما وصف الله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، إلا أن الله يكشف لهم الحجُبَ ليتكلموا مع أهل النار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا ويحاولون إضلالهم، ويضطهدونهم من أجل إيمانهم، فيفتح لهم باب الحوار معهم حتى يشفي ذلك صدورَهم، ويعظُم فرحهم بنعمة الله عليهم، قال تعالى يصف تفاوت الحالين بين سخرية المجرمين في الدنيا وسرور المؤمنين في الجنّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

وبيّن تعالى كيف يتراجع الذين في الجنة الخطابَ مع مَن كانوا يحاولون إغواءهم عن الدين، ويجتهدون عليهم ليَحُولوا بينهم وبين الإيمان بالله وحده، فقال تعالى عن أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾

قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٥٠-٦١].

هذا مشهد من سمر أهل الجنة وحديثهم في ما بينهم، فيتذكر أحدهم حاله في الدنيا مع قرينه الذي كان يلومه على إيمانه، ويسخر من يقينه بالبعث بعد الموت، ثم يخطر له أن يراه فلا يحتاج إلى أن يذهب أو يتطاول، وإنما يطّلع وينظر إلى جهنّم فلا يضيع بصره بين دركات الجحيم، ولا يتشتت بين زحام المعذَّبين، وإنما يرى مَن كان يريد أن يراه، ثم يخاطبه وكأنّه بين يديه، فيلومه كما كان ذاك يلومه، ويعاتبه كما كان ذاك يعاتبه، ويخبره بنعمة الله عليه أن حفظه من غوايته، فها نحن في دار الآخر التي كنت تنكرها، وهذا عذابها الذي كنت تكذّب به، وها أنت في وسط هذا العذاب وبين درَكاته، وهذه الجنة التي كنتُ أعمل لها قد تبوّأتها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦٠، ٦١].

٨- حياة متجددة لا ملل فيها:

إن حياتهم في الجنة مع عمرها غير المتناهي لا يعترضها السّأم ولا الاعتياد المملول، بل هو نعيمٌ متجدّد، ولذا قال الله عنها: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ [الكهف: ١٠٨]. فلا يملّون ولا يسأمون، وليس كنعيم الدّنيا، فإن شهوات الدنيا ونعيمها إذا طالت مُلَّتْ، وكلّ نعيم في الدّنيا مملول، وأما نعيم الجنة فلا يُمَلّ ولا يَزول، فمع أنهم يعيشون تلك الرفاهية والتّرف فإن بجانبه ذلك الرّضا وذلك الأمن والاطمئنان، والتّفكر في عظمة

النعمة والنعيم، وقد ذكر الله طمأنينتهم هذه في امتنانهم لله وحمده على فضله: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]. لقد أذهب الله عنهم الحزن، والدنيا بما فيها من قلق على المصير ومعاناة للأمور تُعَدُّ حزنا بالقياس إلى هذا النعيم المقيم، والقلق يوم البعث والفزع على المصير مصدر حزن كبير أذهبه الله عنهم: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٣٤]، غفر لنا تقصيرنا وخطايانا، وشكر لنا صالح أعمالنا بقبوله وكريم ثوابه، ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥]، فهي دار مقامة، ليس لنعيمها زوال، ولا لعمرها فناء، وكلّ ذلك ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥]، فما لنا عليه من حقّ، وإنما هو فضله يهبه كرماً منه وفضلاً لمن يشاء من عباده. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٥]، بل الراحة التامة فلا نصَب، والسلامة الدائمة فلا إعياء ولا لغوب، ولسلامتهم منهما قالوا: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٥]، فالنصَب واللغوب لا يمسّهم مجرد إمساس، فضلاً أن يصيبهم.

سابعاً: صفات أهل الجنة

ذكر الله صفات أهل الجنة وأحوالهم وأعمالهم، والتي كان جزاؤهم عليها الفوز بنعيم الجنة، وهذه الصفات هي مؤهلات الفوز وطريق الوصول، ولِذا يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فماذا كانوا يعملون؟، هذا ما ذكره الله عنهم في آيات كثيرة، منها:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٦].

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٥].

﴿أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

وهكذا يتكرر ذكر الصلاة كلّما ذُكرت صفات أهل الجنة، فالصلاة هي مقابلة الله في الدنيا، وطريق لقائه في الجنة.

ولمّا ذكر النبي ﷺ رؤية الله في الجنة قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [سورة ق: ٣٩][(١)].

(١) «صحيح البخاري» (٥٥٤)، «صحيح مسلم» (٦٣٣).

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ أبيتُ معَ رسولِ الله ﷺ فأتيتهُ بوضوئِهِ وحاجتِهِ فقالَ لي: «**سَلْ**» فقلتُ: أسألكَ مرافقتكَ في الجنةِ. قالَ: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟**» قلتُ: هوَ ذاكَ. قالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(١).

إن الصلاة هي صِلة العبد بربّه في الدُّنيا، وأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، وهذا القرب في الدنيا من الله بالصلاة طليعةُ القرب عنده في الجنة.

وعند المقارنة بين حال أهل الجنة في الدنيا وجزائهم في الآخرة يظهر ما قدّموه وما نالوه، وما عملوه وما أثيبوا عليه.

لقد كانوا في الدنيا مشفقين خائفين من هول يوم البعث، وكانوا يتراءونه يقيناً ويعملون له بوجل، فكانوا يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

وهذا الخوف من اليوم الآخر ثمرة إيمانهم بالله وتصديقهم بوعده الصادق فهم أهل إيمان ويقين، فكان جزاؤهم على الخوف في الدنيا الأمنُ والطمأنينةُ يوم القيامة، فتتلقاهم الملائكة: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

لقد كانوا خائفين فأمنوا، وكانوا يُعطُون فأخذوا، وكانوا يعملون فاستراحوا، ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦].

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٩).

خلاصات الجنة وأهلها

١ ـ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من نعيم الجنة ما تستوعبه مداركُ الناس وتصوراتهم، وما له نوع في الدنيا يقاس عليه التصور، لأنّ الإنسان لا يخطر بباله إلّا ما رآه أو أدركه بحواسّه.

٢ ـ هناك أنواع من النّعيم فوق ما ذُكر، ولم تذكر مفصَّلةً، لأنه لا نظير لها في الدنيا، فلا تتصورها مدارك الناس، ولكن الله ذكرها مُجْمَلة، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[(١)].

٣ ـ ما ذُكر من أسماء أصناف نعيم الجنة كالفاكهة والنخل والرّمّان والخمر واللّبن هي مشاهد تقريبية، ولِذا قال ابن عباس: ليس في الجنة

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤).

شيءٌ يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء[١]. أي: أن التفاوت بينها مما لا يعلمه البشر، فما في الجنة فوق ذلك نعمة ونعيماً، فالذوات غير الذوات، واللذات غير اللذات.

٤ ـ كثير من لذات الدنيا يشوبها النقص، ويتسرب إليها الفساد، فالخمر في الدنيا يعقبها السكْر والصُّداع، واللبن يتغير طعمه، والماء يتلوّث ويأسن، أما في الجنة فهناك نعيم النعم، وليس فيها شوائبها، كما قال تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

٥ ـ وُصِف خدمُ الجنة بأنهم كاللؤلؤ المنثور: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]. فإذا كان هذا وصف الخادم فكيف بوصف المخدوم.

ووُصفت فرشُ الجنة بأن بطائنها من إستبرق: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. فإذا كانت هذه بطائنها فكيف بما ظهر منها؟!.

إنه تشويقٌ إلى النعيم الأعلى بذكر الأدنى.

٦ ـ كما يوجد في الجنة أنواع من النعيم الحسّيّ في المآكل والمشارب والعلاقات الزوجية، فإن فيها نعيماً نفسيّاً، وسروراً متجدداً، وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم الذي آمنّا به في الغيب، ودعوناه واشتقنا إليه،

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٦٦).

فكيف بنظرة النعيم إذا كُشِفَتْ حجب النور!، وتجلى الله لعباده بجلاله وجماله وعظمته عَزَّوَجَلَّ وتقدّس.

٧ ـ من مشاهد النعيم في الجنة مجالسهم المؤنسة التي يتحدثون فيها بسرور وهناء: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٣، ٤٤]، ويتذكرون أحوالهم في الدنيا باغتباط وسرور.

٨ـ من مشاهد النعيم في الجنة أن يُفتح الخطاب بينهم وبين أعدائهم الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا ويؤذونهم لإيمانهم، فيرونهم وهم في حال الحسرة والعذاب، فيعظم اغتباطهم بإيمانهم، وتزداد سعادتهم بنجاتهم.

٩ ـ ذكر الله صفات أهل الجنة وعدّد أعمالهم الصالحة التي رحمهم بها، وأورثهم الجنة تفضّلاً منه وكرماً، ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وأعظم أعمالهم إيمانهم بالله وما أخبر به، ولِذا يتكرّر وصفهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وهذا العمل لا يُدخِلُ صاحبَه الجنةَ إلا بمنّة من الله وفضل، فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه على بذل جهده، ورغبته في ما عند الله، وهذا هو المؤهل لفضل الله، قال ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْراً، وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ**»[(١)].

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٧٣)، «صحيح مسلم» (٢٨١٦).

١٠ ـ ذكر الله أعمالا صالحة من أعمال أهل الجنة مفصَّلة لِبيان فضلها ومحافظتهم عليها، ومنها محافظتهم على الصلاة، والذكر والاستغفار والدعاء والصدقة والإحسان، والجهاد، والعفاف، والوفاء، والأمانة، وغيرها من خصالهم الخيّرة التي يجمعها التقوى وعمل الصالحات.

الفصل الثالث: النار وأهلها

أولاً: الخارجون من النار والماكثون فيها

ثانياً: دخول المجرمين النار

ثالثاً: طعام أهل النار ولباسهم

رابعاً: شدة عذاب أهل النار

خامساً: شهوات أهل الجنة وأمنيات أهل النار

سادساً: تخاصم أهل النار

سابعاً: أوصاف أهل النار

ثامناً: بين نعيم الجنة وعذاب النار

تاسعاً: عقاب عادلٌ من ربٍّ رحيم

النار وأهلها

وكما ذكر الله نعيم الجنة وصفة أهلها ترغيبا في سلوك طريقها، فإنّه ذكر عذابَ النار وأهوالها، وصفات أهلها تحذيراً من سلوك طريقهم وعاقبة مصيرهم، وتتابعت آيات القرآن تُنذر من جهنم وعذابِها، لعلّ القلوب الغافلة تُفيق قبل أن يواجهها العذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥]، إنّها نارٌ مستعِرةٌ يتلهّب لظاها، وهل بعدَ الصَّلْيِ فيها إلا الشَّقاء البعيد؟!.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، فليس بالبعيد، وهذه الدنيا كلها رحلة قصيرة، وعمر قريب.

وخطب النبي ﷺ فقال: «**أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ**». ورفع بها صوته حتى سقط رداءٌ كان على كتفيه عند قدمَيه[1]، وذلك من شدة انفعاله وتأثّره في خطبته.

(١) «مسند أحمد» (١٨٣٩٨).

وذِكْرُ عذاب النار مما يسوق اللهُ به الناس إلى نعيم الجنة، قال الحسن البصري: إن من أعظم نعم الله على خلقه أن خلق لهم النار تحوشهم إلى الجنة[١]. كما أن ذِكر النار مما يحذّر الله به الناس من الظلم والأعمال السيّئة والجرائم المنكرة التي سيكون العقاب عليها بعذاب النار، حمايةً لهم من الوقوع فيها.

ولِذا يعيش المؤمنون في هذه الدنيا وكأنما يتراؤون عذاب النار ويحسّون لَفحها وهولها، فيكثر دعاؤهم ربّهم أن يبعدهم عنها، ويجيرهم من عذابها، وقد ذكر الله من دعائهم: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢].

وجاءت آيات القرآن تصف هَول العذاب وبؤس الشقاء الذي يصير إليه هؤلاء المجرمون الذين ارتكبوا هذه الأعمال السيئة، وأن هذا سيكون جزاؤُهم وحالُهم في الآخرة، بعد ما كانوا يعيشون في الدنيا حالاً من الظلم والاستكبار والكفر بنعم الله والتكذيب لرسله.

وكثيراً ما تأتي آيات العذاب مبينة صفات هؤلاء الأشقياء التي استحقوا بها هذا العقاب الإلهي وأعظمها الكفر بالله وتكذيب رسله.

---

(١) «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (١/ ١٩٧).

وكما صَوَّرَتِ الآيات مشاهدَ العذابِ الحِسِّي فقد صوَّرتِ الْحَسراتِ النفسية التي يعيشها هؤلاء الأشقياء حينما يتخلى عنهم قادتهم في الكفر والإجرام، ويتبرؤون منهم، ويصيرون أعداءً لهم، بعد أن كانوا في الدنيا يتباهون بهم، ويتقوون باتباعهم.

ومن أهمّ ما ينبغي استحضاره عندما نقرأ وصف هذا العذاب الشديد أن نعلم أن الله إنّما يعذّب بهذا العذاب مَن يستحقّ هذه العقوبة بجدارة واستحقاق، وأنّ الله قد حرّم الظلم على نفسه كما حرّمه بين عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. وأنّ الله لا يمكن أن يعذّب مَن لا يستحقّ العذاب، ولا يمكن أن يعذّب مذنباً بأكثر مما يستحقّ، وأن رحمة الله سبقت غضبه، وأن عفو الله ومغفرته مبذولة لمن سألها، مهما أذنب، ما دام في فرصة الحياة الدنيا، أمّا مَن لقي الله بجرائمه وعناده وكفره وسعى إلى النار بقدمه فإن الله عزيز ذو انتقام.

أولاً: الخارجون من النار والماكثون فيها

وسيدخل النارَ أناس بسبب سيئات تراكمت عليهم، وخطايا قارفوها ولم يتوبوا منها، ومع ذلك ستُدركهم رحمة الله فينقذهم من النار بعد أن استحقوها وصاروا من أهلها، وذلك بالإذن بالشفاعة فيهم، فتشفع الملائكة، ويشفع الرسل، ويشفع المؤمنون، فيقبل الله شفاعة هؤلاء كلِّهم، فيُخرجون من النار كل مَن شفعوا فيه، وهذه الشفاعة هي من الله إكرام للشافع، ورحمة بالمشفوع له.

وأعظم هذه الشفاعات شفاعة نبينا محمد ﷺ وقد ذكر النبي ﷺ هذا المشهد يوم القيامة، وكيف سيشفع عند ربه، وما سيعطيه الله عَزَّوَجَلَّ إذا شفع، فقال ﷺ: «**أَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الـمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.**

فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ. فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الـمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الـمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَقُولُ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1].

وكما يشفع النبي ﷺ لأمته فكذلك الرسل سيشفعون لأممهم.

وممن سيشفع لأهل النار إخوانهم المؤمنين الذين أنجاهم الله منها ولم يدخلوها، فيشفعون لمن يعرفون من المعذبين من النار، وقد بين النبي ﷺ هذه الشفاعة فقال: «إِذَا خَلَصَ الْـمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لله فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا، كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ،

(١) «صحيح البخاري» (٧٥١٠)، «صحيح مسلم» (١٩٣).

ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَداً مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَداً. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْراً. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْـمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمَماً، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً»[1].

إنّ هذه الشفاعات تُخرج من النار كثيراً من المعذَّبين الذين استحقوا العذاب بآثام اقترفوها ولم يتوبوا منها، فإذا انتهت هذه الشفاعات كلها فإن الله برحمته يُخرج من النار أمماً عظيمة لم تدركهم شفاعة الشافعين، فلم يعرفهم أحد، ولم يشفع فيهم أحد فيُخرجهم الله من النار برحمته،

(١) «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، «صحيح مسلم» (١٨٣).

فلم يبق سبب لإنقاذهم إلا رحمة الله الواسعة، ويقيننا أن هذه الأمم التي سيُخرجها الله برحمته أكثر بكثير من الذين خرجوا بشفاعة الشافعين، فرحمة الله وسعتْ كلَّ شيء، وهؤلاء سيخرجون بقبضة من الرحمن يقبضها من النار، فيا لله! كمْ هؤلاء الذين ستحيطهم قبضته؟! وهو القائل: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. فكم من الخاطئين المستحقين للعذاب سيُنقذهم الله منه بقبضته المباركة الكريمة التي يُخرجهم بها من العذاب ويدخلهم الجنة بلا عملٍ عملوه ولا خيرٍ قدّموه! فما أوسع رحمة الله وأعظم كرمَه!

وهذا كلّه يبيّن أن هؤلاء الذين سيبقون في النار بعد ذلك هم أولئك الأشرار الذين لم يوجد في نفوسهم أدنى قدر من الخير يمكن أن يُنقذهم الله به، فهم شرار الخلق وأنجاسهم الجديرون بكلّ عقوبة ونكال.

إنّ أهل النار هم أولئك الجاحدون الذين تنكّروا للإيمان بالله ومعرفته، وهم الفسقة المكذبون ممّن شاقّوا الرّسل، وعادَوا الدين وأهله، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وسخروا مما وراءها، ولم يعرفوا في دنياهم إلا متعهم وأطماعهم وشهواتهم، وهم أولئك الظلمة الذين ارتكبوا الجرائم وظلموا الضعفاء وتجبّروا عليهم، فيقتص الله منهم، ويذيقهم عاقبة ظلمهم.

لقد استحقوا عذاب الله في الآخرة لأنّهم لم يتّقوه في الدنيا بعملٍ صالح، بل هم لم يؤمنوا به أصلاً، وكانت معيشتهم على ظهر الأرض تشبّعاً باللّذّات المتاحة، وجرْياً وراء الشهوات والمطامع الآثمة مهما ارتكبوا في سبيل تحصيلها من ظلم وإجرام.

وطالما أعرضوا عن دعوات الرسل واستكبروا عنها، وأعلنوا كراهيتهم لها ونفرتهم منها، ولم يلزمهم الرسل بشيء، ولم يُكرهوهم عليه، وقالوا لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. إنّه لا إكراه في الدين، والتخيير هو الأساس في التكليف والثواب والعقاب: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩]. فالداخلون إلى الجحيم يدخلونها بأرجلهم وبعنادهم وإجرامهم واستكبارهم[١].

(١) «ماذا وراء بوابة الموت» للطبيب مصطفى محمود (١١).

ثانياً: دخول المجرمين النار

كما أن للبعث فزعه وهوله، فلرؤية النار والإقبال عليها فزعها وهولها ودهشتها، فتبهتهم بغتتها وفجأتها: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]. ويُساق المجرمون إليها سوقاً وهم كارهون: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وقد بين الله حال النار، وهي تتلقاهم قَبل أن يصلوا إليها، فقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١١، ١٢].

إنه مشهد يزلزل القلوب القاسية ويهزّ المشاعر الخامدة، مشهد الجحيم المتسعّرة، وقد سرَت فيها الحياة، فهي تنظر بغيظٍ وحنق إلى أولئك المكذّبين بها، المستخِفّين بعذابها، فيسمعون تغيّظها وزفيرها وهي تتحرّق عليهم، وتزفر غيظاً منهم، وهم في الطريق إليها، فإذا رأوها غشيهم الكرب، وتبدّى لهم سوء المصير، وأيقنوا أن هذا هو العذاب الذي سيلقونه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

فهم يُدفعون إلى هذا المصير بعنف: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]. هنا تستبد بهم الحسرة، ويتملكهم الندم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤]. لقد أسروا الندامة ولم يعلنوها، فقد واجهوا العذاب بغتة، وسيقوا إليه كرها، وأدركوا أن لا مفرّ ولا شفيع ولا نصير، فهذا جزاؤهم على سيئ أعمالهم، فكان حالهم الاستسلام والخشوع والذل المخزي: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. إنهم يُعرضون على النار أذلاء خاشعين، منكسري الأبصار، لا يرفعون أعينهم من الخزي، بل ينظرون من طرف خفي، لا يقدر على المواجهة خِزياً وذلّاً، فقد ذلّت كبرياؤهم، وزال طغيانهم، وواجهوا جزاءهم ومصيرهم، وأمامهم على أبواب جهنّم خزنتها، وهم ملائكة غِلاظٌ شِداد، كأنّما رؤيتهم وتلقّيهم جزء من العذاب، فيأخذونهم بشدّة وعنف، برؤوسهم وأرجلهم: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

ويُلقَون فيها مغلولين مُوثقين: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣، ١٤]، لقد ألقوا إلقاءً وقد قُرِنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل والأغلال، وأُلقوا في مكانٍ ضيّق يزيدهم كربةً وضيقاً.

وهذا العنف في الأخذ يصاحبه تبكيت ولوم ومساءلةٌ مُذلّة: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]. وليس أشد من التأنيب والتعنيف على الضائق المكروب، ولِذا يأتي الجواب في ذل الاعتراف

وخجل الانكسار: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٩]. وقلنا للرسل الكرام الذين أنذرونا: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩]. ثم يرجعون على أنفسهم باللوم والتحقير: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. فقد فقدنا السمع الذي يستمع الهدى، وفقدنا العقل الذي يقود إلى الحق واعترفنا بذنوبنا، ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، إنّهم أصحاب السعير الـمُلازمون له المقيمون فيه، ويا لها من صُحبة! ويا له من مصير!.

فإذا أُلقوا في جهنم تلقتهم بغيظٍ كأنما عرفت ذنوبهم وشاركت في النقمة عليهم: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨].

وقد وصف الله حال دخول المجرمين إلى النار فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

هكذا يُساق رَكب جهنم من المتكبرين الكافرين، وهكذا يستقبلهم خزنتها فيؤكدون استحقاقهم لها، ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها، فيُقِرّون بذنوبهم بإذعان وتسليم، فالموقف ليس موقف مخاصمة ولا مجادلة، ولكن اعتراف وحسرة وندم.

ثالثاً: طعام أهل النار ولباسهم

ومن بؤس حال أهل النار تنوّع العذاب عليهم، فمع سعير الجحيم الذي يغشاهم فإنّ طعامهم عذاب، وشرابهم عذاب، ولباسهم عذاب، وفراشهم عذاب، وقد وصف الله حالهم تلك فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

إنّهم سوف يصرخون مستغيثين يريدون شراباً يُطفئ العطش الـمُحرق، فيُغاثوا بهذا الماء الغليظ الكريه الذي يشوي وجوههم إذا قرّبوه، ويقطّع أمعاءهم إذا شربوه.

وجاء وصف طعامهم الزقوم، وهو ثمرُ شجرٍ جهنّميٍّ يخرج من قرار الجحيم، قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

إنّ الناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون، ولكنَّ مجرَّد تصوّرها يثير الفزع والرّعب، فكيف إذا كانت هي هيئة طعامهم الذي يأكلونه ويملؤون منه البطون؟!، هذه هيئته الشنيعة فكيف بطعمه ومذاقه البشِع الكريه؟!.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٧]. ومع منظر الطعام الـمُرعب وطعمه البشِع فإنهم سيأكلونه فلا طعام غيره، وسيكثرون منه حتى تمتلئ به بطونهم، فإذا أرادوا إساغته بشراب كان شرابهم ذاك الشرابَ الملتهبَ الذي يشوي الوجوه، ويقطّع الأمعاء، ومع ذلك سيشربون كما تشرب الإبل الظامئة الماءَ تعبُّه عبّاً.

رابعاً: شدة عذاب أهل النار

جاء وصف شدة العذاب ونكاله مجملاً ومفصَّلاً في آيات كثيرة، فوصف الله عذابه بأنه شديد فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢].

ووصفه بأنه مهين فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ووصفه بأنه أليم فقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

ووصفه بأنه غليظ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**». قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**»[(١)].

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٦٥)، «صحيح مسلم» (٢٨٤٣).

ونحن لا نملك في الدنيا أن نُدرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة، وإنّما تجيء هذه الأوصاف لتُقرِّب لحِسّنا البشري أقصى ما يمكن تصوّرُه من العذاب والألم، وعذاب الآخرة بعد ذلك أشدّ وأبقى.

وقد ذكر الله بعض أهوال شدته وألمه، ومن ذلك تجدد هذا العذاب، فهو ألم متجدد لا يحتمل ولا يُعتاد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦]. وهو مشهد مروّعٌ لِلَفْح النار والشُّواظ والإنضاج للجلود، وتكرره بتجدد هذه الجلود، وهو تجدّد لا لتشفى ولكن لتُشوى، ولتحترق مرة بعد أخرى، في تجدد للعذاب وتكرار للآلام.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥]، فهو عذاب دائمٌ، في حال شديدة عصيبة، لا يفتَّر عنهم لحظة، ولا يستريحون منه هُنيهة، ولا تلوح لهم بارقة أملٍ في الخلاص منه، فهم فيه مُبْلِسون يائسون.

ومِنْ شدة هذا العذاب وهَوْلِه أن الوجوه التي هي أشرف الجسد وأرقّه ومجمع حواسّه هي محلّ أشد العذاب وأوّله، ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، إنَّ العادة أن الإنسان يحمي وجهه ويقيه، لكن هؤلاء لا يملكون أن يدفعوا العذاب بأيديهم، فتتلقاه وجوههم في مشهد مخيف يدل على العجز والحيرة والاضطراب.

وعذاب النار عذاب أليم مُقيم، لا يؤدي إلى موت، ولا يُبقي على حياة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦].

وتكررت آيات القرآن تؤكد شدة هذا العذاب وخلوده، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا نبي الله، كيف يُحشَر الكافر على وجهه؟ قال: «**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِراً عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!**»[(١)].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

إنه مشهد عنيف صاخبٌ مخيفٌ مروِّع، فهذه ثياب من النار تُقَطَّع وتُفَصَّل، وهذا حميم يُصَبّ مِنْ فوق الرؤوس فيصهر الجلود وينفذ إلى البطون،

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٢٣)، «صحيح مسلم» (٢٨٠٦).

وهذه مقامع من حديد يضربون بها بعنف كما يُطرَق الحديد، وها هو العذاب يشتد ويتجاوز حدّ الطاقة والاحتمال، ويشتد بهم الكرب والغمّ فيهمّون بالخروج من هذا الغمّ وإذا بهم يُرَدّون بعنف وشدّة وتوبيخ وغلظة: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

ومع شدة أنواع العذاب الحسّي الذي يعيشه هؤلاء المجرمون في جهنّم فإنهم يذوقون عذاباً نفسيّاً شديداً من التبكيت واللوم والتقريع، وتذكيرهم بسوابقهم الإجرامية التي استحقّوا بها هذا العذاب، ويبدأ هذا التبكيت عند أبواب الجحيم ويواجههم به خزنتها بتذكيرهم باستحقاقهم لها، والإجرام الذي جاء بهم إليها.

وعندما يُعرضون على النار فيرونها عياناً ويشاهدونها حقيقةً، وهم الذين كانوا في الدنيا ينكرونها، ويستخفّون بالوعيد بها، فيُساءَلون تقريعاً لهم وتبكيتاً: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

لقد كانوا ينكرون النار ويُكَذِّبون بها، ثم الآن أقرّوا بها وأقسموا، ولكن بعد فوات الأوان، وما قيمة أن يؤمنوا بعذاب النار وقد صاروا من أهلها، واستحقوا عذابها؟!

ويتكرر عليهم تذكيرهم بتكذيبهم بهذا العذاب الذي يحاولون الخروج منه فيُعادُون إليه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢٧-٣٠]، إن تكذيبهم بالبعث والحساب والجزاء كان من أعظم ذنوبهم في الدنيا، ولعدم إيمانهم بالجزاء وبعذاب النار الذي أنذروا به فقد تهوّكوا في الجرائم، واستكثروا من عمل السيئات، ولِذا يتكرر تذكيرهم بتكذيبهم وسيئات ما عملوا، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٥-١٧].

ويُذَكَّرون بأعمالهم الإجرامية التي عملوها في الدنيا وهم يعانون ألم العذاب الذي يغمرهم، ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

ومن شدة العذاب في النار أن الله يجعل لها إدراكاً وغيظاً وتشفّياً ممَّن يعذبون فيها، فهي تدعوهم إليها: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٧]. و﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]. فهم يسمعون غيظها وزفيرها قبل أن يصلوها، فإذا ألقوا فيها سمعوا شهيقها وفوَرَانها، ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٦-٨].

وتظل هذه النار تتلظى، وتطلب المزيد لشدة غيظها، فتلتهم ما يُلقى فيها التهاماً، وتتحرّق إلى وقود جديد، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠].

إن أهل النار كما يعانون عذابها ونكالها وحريقها ولظاها؛ يعانون غيظها وزفيرها وحنقها على مَن أُلقي فيها.

خامساً: شهوات أهل الجنة وأمنيات أهل النار

شتّان بين شهوات أهل الجنّة وأمنيات أهل النار، فأهل الجنة يدركون شهواتهم ويحققون كل رغباتهم، وتحتفي بهم الملائكة في الجنة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]، فكل شهوات أهل الجنة محققة، ينالونها بمجرد أن يشتهوها.

فأهل الجنة لا يتمنّون، لأن الأماني لِما يستحيل تحققه، كقولنا: «ألا ليت الشباب يعود يوماً». وليس في الجنة رجاء، لأن الرجاء لِما يُنتظر تحقّقه، كقولنا: «عسى فرجٌ يأتي به الله عاجلاً». أما أهل الجنة فكل رغباتهم وشهواتهم متحققة لهم بمجرد أن يشتهوها، فلا يتمنَّونها ولا ينتظرونها، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

أما أهل النار فأمانيهم حسرات يتجرعونها، لأنه قد فات أوان العمل لها، وحيل بينهم وبين تحقيقها، فمن أمنياتهم:

﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشورى: ٤٤].

إن هذا الذي يتمنونه في النار طالما طُلب منهم في الدنيا فرفضوه، وعُرض عليهم فأعرضوا عنه.

وقُصارى أمنياتهم أن يُقضى عليهم فيموتوا، أو أن يخفف عنهم يوم من العذاب، فيجيؤهم الجواب مبكِّتاً يزيدهم حسرات ويأساً: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقد ذكر الله بعض أمانيهم في القرآن ومنها:

﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُمۡ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

هذا دعاؤهم الذي يدعون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، إنها التوبة والاعتراف والندم ولكن بعد فوات الأوان وإضاعة الفرصة، ولذا يأتي الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُمۡ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، فلم تنتفعوا بفسحة العمر هذه، وهي كافية للعمل وللتذكر، ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، فلم تتذكروا ولم تحذروا، ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وذكر الله أمنيتهم هذه في سياق آخر فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

تأتي أمانيهم في سياق الاعتراف بالضلال والشقاء والتعهد بعدم العود إلى سابق غيّهم وضلالهم، قال تعالى: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤-١١١].

لقد جاءهم الرد عنيفاً قاسياً: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَاسكُتوا سكوت الأذلّاء المهينين جراء استكباركم في الدنيا، وسخريتكم من الأخيار الصالحين الذين كانوا يؤمنون بالله ويعظمونه ويستغفرونه، وكما سخرتم منهم في الدنيا وضحكتم فإنكم اليوم في جحيم النار اللافح وعذابها الكالح، أما أولئك المؤمنون الذين صبروا على أذاكم وتحمّلوا سخريتكم فقد نالوا الكرامة والفوز وحسن الجزاء، ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

وتصحبهم مرارة الندم وحسرة التمني ويصحبهم العذاب الخالد الأليم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، إنها لهجة ضارعة ذليلة، ونبرة نادمة حسيرة، وكأنّما يدركون أن هذه أمنية يائسة لا رجاء لها، فترتدّ حنقاً أليما وسخطاً مريراً على أولئك السادة والكبراء الذين أضلوهم وأصاروهم إلى هذا المصير: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨]. وما يغني عنهم أن يعذَّب أولئك أو يضاعف عذابهم فكلٌّ سيشقى بعذابه، ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ومن أمنياتهم أن ينيلهم أصحاب الجنة شيئاً مما رزقهم الله:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠، ٥١].

وتُظلم عليهم الأماني حتى يكون قُصاراها الموت المُهلِك، فيصير الموت أمنية يتمنّونها، ودعوة يدعون بها.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٨].

إن نداءهم من وراء الأسوار نداء المكروب، تحسّ في ندائه ضيق الصدر، وألم العذاب، ووهج النار، ولفح الجحيم، فإذا طَلب وتمنى كان الموت طلبهم الذي يطلبون وأمنيتهم التي يتمنون، «وحَسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا»، وأشد من الموت ما يُتمنّى من أجله الموت.

سادساً: تخاصم أهل النار

وكما كان الخصام الشديد في موقف القيامة والحساب بين الأتباع والمتبوعين، وبراءة الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا في ذلك الموقف فإن هذه الخصومة والبراءة من بعضهم تتجدد عند دخول النار، فيشتد النزاع، وتحتدم الخصومة وهم يتداركون أفواجاً في جهنم.

فإذا ألقي فوج المتبوعين تبعهم فوج الأتباع فيقولون: ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: ٥٩].

وهكذا يتبرأ المتبوعون من أتباعهم ويقولون: «لا مرحبا بهم» وهم الذين كانوا يغرونهم في الدنيا ويتكثرون بهم، فلا يسكت هؤلاء الأتباع عن هذه المشاتمة بل يردون عليهم أشد منها فيقولون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [سورة ص: ٦٠]، فأنتم الذين دعوتمونا إلى هذا المصير وقدمتم الدعوة لنا إليه، فبئس قرارنا وبئس مستقرنا.

ثم يدعون الله بحسرة ومرارة وندم على من أغراهم بالضلال وقدمهم إلى هذا المصير: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: ٦١]،

وكأنهم بهذا الدعاء ينتقمون لأنفسهم، ويثأرون لشقاء مصيرهم، وما ذاك بمُغْنٍ عنهم شيئاً، ولكنها مرارة الخيبة وقلة الحيلة.

وتزداد هذه الحسرة والمرارة عندما يبحثون في النار عن أناس كانوا في الدنيا يسخرون منهم ويتقوون برؤسائهم عليهم فلا يرونهم معهم في هذا المصير البائس، ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة ص: ٦٢، ٦٣]. كلّا لم تزغ الأبصار عنهم، ولكن حُجبت، فلو نفذت إلى جنات النعيم لرأيتموهم هناك متكئين متنعمين على سرر متقابلين.

وقد ذكر الله هذا التخاصم والتلاعن في دركات الجحيم في مشهد آخر فقال: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

لقد كانت هذه الأمم في الدنيا يتبع آخرُها أولَها، ويملي متبوعُها لتابعها، فإذا اجتمعوا في النار وحاقت بهم الخسارة وسوء العاقبة ثارت بينهم الأحقاد والتخاصم فما أبأسها من عاقبة! يلعن فيها التابع متبوعَه، ويدعو عليه ويحمّله مسؤولية مصيره الخاسر، وهكذا يتكشف المشهد عن الذين كانوا في الدنيا أصفياء وأولياء وإذا هم متناكرون وأعداء، يتهم بعضهم بعضاً، ويدعو بعضهم على بعض، ويتبادلون الشماتة وتحميل المسؤولية والجريرة، حين يتبرأ المتبوعون من أتباعهم، ويحملونهم عاقبة إجرامهم،

﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩].

وسيعلن هؤلاء الذين اتُّبِعوا براءتهم من أتباعهم، وتنقطع العلاقات بينهم، ويتمنى هؤلاء الأتباع في حسرة وندم لو أن لهم كرة أخرى فيتبرؤون هم أيضا من زعمائهم هؤلاء، وكل ذلك مزيد حسرة عليهم وندم وألم: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

وهكذا أُسقطت الرئاسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها، ويستقوون بها، وعجزت عن وقاية نفسها، فضلاً عن وقاية تابعيها، وظهر الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين على القيادات التي أضلّتهم، وتمنَّوا لو يعودون إلى الأرض فيتبرؤون من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة التي خدعتهم وسارت بهم في طريق الضلال، ثم تبرَّأت منهم أمام العذاب.

إنّه مشهد مؤثِّر مشهد التبرُّؤ والتعادي والتخاصم في زوايا النار وتحت عذابها بين التابعين والمتبوعين، وهنا يجيء التعقيب العنيف المؤلم، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

ومن أشد آلامهم النفسية حين يرون آلهتهم الزائفة التي كانوا يعبدونها من دون الله وقد صارت حطباً لجهنم تصلى العذاب معهم، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

ويأتيهم التبكيت واللوم الشديد حين يطلب منهم أن يبحثوا عند آلهتهم المزعومة هذه عن نصرٍ أو معونة: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩١-١٠٢].

إنهم يلقون التَّبعة في هذا الضّلال على المجرمين منهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩]، ثم يعلمون أنّ الأوان قد فات، وأن لا فائدةَ من توزيع التبعات: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، فلا الآلهة تشفع، ولا الصديق ينفع، فيرجعون إلى الأماني: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢]، ولكنها أمنية فات وقتها، فليس ثَمّ كرّة أخرى، ولا رَجعة من الآخرة إلى الدنيا.

ومن أشد أنواع التبكيت والحسرة لهم أن الشيطان الذي كان يسوّل لهم ويغرّهم ويضلّهم حتى أغواهم فاتّبعوه، إذا به يتخلّى عنهم ويتنكّر لهم، ويحمّلهم مسؤولية ضلالهم، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

إنها الحقيقة تبرز عارية أمام الهول العظيم، فهذا الشيطان يعترف لأتباعه أن الله وعدهم وعد الحق، وأنه هو وعدهم فأخلفهم، ثم يمضّهم ويؤلمهم ويحمّلهم مسؤولية فعلهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ثم يزيد في براءته منهم إلى الكفر بشركهم ووعيدهم بأليم العذاب على ظلمهم: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وكأنما يتلذذ الشيطان بالشماتة بهم والتّشفّي منهم.

سابعاً: أوصاف أهل النار

ذكر الله أوصاف أهل النار والأعمال التي استحقوا بها العذاب، وكرّرها في آيات كثيرة، ومن أعظمها الشرك بالله، ومساواة غير الله بالله، وعبادة غيره معه.

ومن صفاتهم تكذيبهم بالبعث والجزاء والحساب والجنة والنار، وإعراضهم عن عبادة الله، فلم يكونوا من المُصَلين، وقسوتهم على الضعفاء والفقراء، فلا يطعمونهم ولا يحسنون إليهم، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣].

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

ثامناً: بين نعيم الجنة وعذاب النار

كثيرا ما ذكر نعيم الجنة مع عذاب النار لأن في ذكرهما جمعا بين الترغيب والترهيب، ولأنه بمعرفة عذاب النار يعظم قدر نعيم الجنة لطالبها، فهو لم يظفر بهذا النعيم فحسب، ولكن ظفر بالنجاة من ذاك العذاب، فالنجاة من النار فوز، ودخول الجنة فوز مضاعف، ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

كما أن في معرفة نعيم الجنة الموعود زيادةَ حسرةٍ وألم لـمَنِ استحق عذاب النار، فهو مع عذابه في جهنم قد خسر نعيم الجنة، وقد ذكر الله نداء أهل النار لأهل الجنة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

فقد علم أهل النار وهُم في عذابها ما لأهل الجنة من النعيم فيها، وتمنوا أن ينالوا منه نصيبا ولو شربة ماء، فكيف بحسرتهم على هذا الحرمان مع ما هم فيه من عذاب؟!.

ولذا فإن في المقارنة بين حال النعيم في الجنة والعذاب في النار استكمالاً للمشهد، ومزيدَ ترغيب في طريق الجنة، وتحذيراً من طريق النار، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [فصلت: ٤٠]، وعندما ذكر الله حال أهل النار فقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣، ١٤]، عقّب على ذلك بالمقارنة بحال أهل الجنة فقال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥]، وذكر حال المكذِّبين يوم يرون الملائكة فلا تبشّرهم بخير، فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]. ثم قال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، فحال أصحاب الجنة خير من حال أولئك، وشتان بين دارٍ ودار، وحال وحال، وعندما ذكر نعيم الجنة ومآكلها وظلّها عقّب على ذلك بما يقابله وهي عُقبى الكافرين ومصيرهم، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]. إنها المقارنة بين النعيم والعذاب، والسعادة والشقاء، وحسن العاقبة وسوء المنقلب، وقد ذكر الله أحوالا من نعيم الجنة وما يقابلها من عذاب النار، فتزداد نضرة النعيم نضرة وشقاءُ العذاب شقاءً.

وهنا نقف مع بعض ما ذكره الله من نعيم الجنة، وما يقابله من عذاب النار، وبضدها تتميز الأشياء، فمن ذلك:

١ ـ سعة الجنة وأنَّ عَرْضَهَا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وأمّا النار فتضيق على أهلها فيُلقَون منها مكاناً ضيّقاً مكبَّلين، فمع ضيق المكان ضيق الأغلال، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

٢ ـ أهل الجنة يصِلون إلى الجنة زمرا ويدخلونها وفوداً، وأهل النار يُدفعون إلى جهنم دفعا عنيفا.

ثم يلقون فيها إلقاءً مهيناً حيث يقذفون في النار بأقدامهم ونواصيهم.

٣ ـ الجنة تقرب للمتقين حفاوةً بهم وإكراماً لهم، وأما النَّار فإنها تبرز للمجرمين متغيظة زافرة.

٤ ـ أهل الجنة يدخلونها بحفاوة وسلام فتتلقّاهم الملائكة مرحِبّةً بهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وأهل النار يُلقَون فيها مع التبكيت واللوم والإهانة، فيدخلونها وهم يُتَوَعَّدون بالخلود وسوء المستقر عند وقوفهم عليها، تبكيتاً لهم وتذكيراً بتكذيبهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

٥ ـ أهل الجنة في صفاءٍ ووداد، حتى ما كان بينهم في الدنيا من كدر أو بغضاء يصفى من قلوبهم.

وأما أهل النار وإنْ كانوا أخلاء في الدنيا فستنقلب هذه الصداقات عداوة وخصاماً، وتتحول موالاتهم وعلاقاتهم مع أتباعهم إلى تبرّؤ وتلاوُم وتلاعن.

٦ ـ أهل الجنة مبعَدون عن النار فلا يسمعون حسيسها ولا ضجيجها، ولا يكدرهم عذاب أهلها.

وأهل النار يسمعون زفيرها قبل أن يصلوها، فكيف إذا وصلوها!، فلهم زفير وللنار زفير، ولكل ذلك صخبه وضجيجه.

٧ ـ أهل الجنة وهم في نعيمها يُرَدَّد عليهم الترحاب والسلام من الملائكة ليتجدد نعيمهم وسرورهم:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وأهل النار وهم في عذابها يُكرَّر عليهم التقريع والتبكيت ليزدادوا ألما في نفوسهم كما يتألمون في أجسادهم ويُقال لهم وهم في غمرات العذاب: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٥٠].

٨ ـ أهل الجنة يُذكَّرون بأعمالهم الصالحة تكريما لهم ويُقال لهم:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

وأهل النار يذكرون بكفرهم وتكذيبهم وقبائح أعمالهم زيادة في لومهم وتقريعهم: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

٩ ـ أهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار، وأهل النار ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

١٠ـ أهل الجنة في سكينةٍ وحبور، ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ [مريم: ٦٢].

وأهل النار يصطرخون فيها ويضجون ويتلاعنون، فَشَتّان بين من هم في سكينة وسلام ووئام، ومَن هم في صخبٍ وتلاعن وخصام.

١١ـ أهل الجنة يتذكرون أعمالهم الصالحة في الدنيا باغتباطٍ، وحمدٍ لله أن وفقهم لها، فيتذكرون إيمانهم يوم كفر غيرهم، ويتذكرون خشيتهم يوم اغترّ غيرهم.

أما أهل النار فيتذكرون كفرهم وتكذيبهم ويقولون: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك: ٩].

١٢ـ ذكر الله طيبات طعام أهل الجنة التي تقدم لهم بما يقرب وصفها لمداركنا، فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤٢]. ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١]. إنها فواكه كثيرة، وأنواع متنوعة، فهم يتخيرون منها، ولحوم كثيرة وهم يتشهّون منها.

ولكثرتها تتشابه عليهم، ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة: ٢٥].

أما أهل النار فبئس الطعام طعامهم، فمنظره عذاب، ومذاقه عذاب، وأكله عذاب، إنّه طَلع شجرة الزّقّوم، التي تخرج في أصل الجحيم، فإذا أكلوها التهبت في بطونهم فهي تغلي كغلي الحميم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

١٣ ـ ذكر الله شـــراب أهل الجنة فـــإذا هو نعيم كله، نعيـــم في مذاقه، ونعيم فـــي مزاجه، ونعيم في آنيته، ونعيم في تقديمـــه وتعاطيه، ذكر أنواع شرابهم فقال:

﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وذكر مزاجه فقال: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، وقال: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧].

وذكر أُنْس تعاطيهم للشراب فقال: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

أما أهل النار فشرابهم عذاب فوق العذاب، وإذا قُدّم لهم فهو يغلي كاللهب شَوَى وجوهَهم، وإذا شربوه قطّع أمعاءهم، وهو مع ذلك كريه الرائحة، كريه الطعم، لا يُستساغ، ولكن يتجرع على تَكرُّه وألم، قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [سورة ص: ٥٧]، والحميم شديد الحرارة، والغسّاق الكريه الـمُنتن كماء الصديد، فما أبأس حال مَن هذا شرابُه!، وما أشدّ عذابه!.

١٤ ـ أهل الجنة يتشهون، وأهل النار يتمنون وشتَّان بين شهوات أهل الجنة وأمنيات أهل النار.

فشهوات أهل الجنة متحققة لهم بمجرد أن يشتهوها فلا يتمنَّونها ولا ينتظرونها.

وأما أهل النار فأمنياتهم منقطعة، فهي حسرات يجترُّونها وأُمنيات ممنوعة يتمنونها، جاءت في غير وقتها، فقد كانت قبل ذلك يسيرة مبذولة، وكانوا يُدعَون إليها فيُعرِضون عنها.

وأعظمها حسرة تمنيهم الإيمان بعد أن عاشوا حياتهم على الكفر فيقولون: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

يا الله! لطالما دعوا إلى الايمان فأعرضوا واستكبروا، وها هم يتمنون ذلك بعد أن صار الغيب شهادة، وغادروا دار العمل، ووصلوا دار الجزاء.

﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبٖ﴾ [سبأ: ٥٤].

وتأتي أمنياتهم سؤالا يسألونه ربهم بضراعة ودعاء: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧]. فيأتيهم الجواب المُسكِت المبكت: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

١٥ ـ فُرُش أهل الجنة وفُرُش أهل النار، فذكر الله فرش أهل الجنة وسُرُرهم، وفيها تنوع في الترف والنعيم، ففيها السُّرُر المرفوعة، والنمارق المصفوفة، والزرابيّ المبثوثة.

أمّا أهل النار فقد جُعِل فراشُهم من نار، وغطاؤُهم من النار، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ [الأعراف: ٤١]، والمهاد هو الفراش الذي يمهد لهم، والغواشي هي الأغطية.

١٦ ـ أهل الجنة ينعمون بنفائس الحُلِيِّ، وفاخر الثياب يلبسونها كرامة لهم، ونعمة ظاهرة عليهم، ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١]. ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١].

وأما أهل النار فلباسهم عذاب مع عذابهم: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]. ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

١٧ ـ ما يقوله أهل الجنة وما يقوله أهل النار:

حين تجمع الآيات التي ورد فيها ما يقوله أهل الجنة في الجنة وما يقوله أهل النار في النار يتكامل لك المشهد، فكأنما تسمع رفيف كلام أهل الجنة وفيه السكينة والسلام، وفي الكلمات رنين السعادة، وغبطة السرور، وكأنما تسمع عويل أهل النار وضجيجهم وهم يصطرخون فيها، فتحسّ من كلماتهم مضاضة الألم، ومرارة الندم، وفجيعة الحسرة، وخيبة اليأس.

إذا سمعت ما يقوله أهل الجنة فهو هذه الطائفة المبهجة:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۚ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

وإذا سمعت أهل النار فإذا كلماتهم دموع وألم، وحسرات وندم، وتبدأ هذه الحسرة والندم منذ أن يتلقى كلٌّ منهم كتابَه بشماله ويعلم عاقبته ومصيره، فيدعو بالويل والثّبور، ويصرخ بحسرة وألم:

﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

استمع إليهم وهم في غمرات الجحيم يصطرخون فيها، فإذا تبيّنت كلماتهم فإذا هي التسخّط على حالهم، والتخاصم في ما بينهم، والدعاء اليائس المردود عليهم.

﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وعندما يُسألون: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الزمر: ٧١]، يكون جوابهم الحاسر الخاسر: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وعندما يُسألون: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ [الملك: ٨]، فيجيبون: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٩].

وعندما يرون زعماءهم ومَن أضلوهم يقابلونهم بالنقمة والغضب، ويتوجهون إلى الله بالشكاية منهم والدعاء عليهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: ٣٨]، فيأتيهم الجواب الذي يزيدهم نقمة وحسرة: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ويرُدّ عليهم فريق الزعماء وهم في النار بتوبيخ وغضب: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩].

فإذا رجعوا إلى أنفسهم وانفردوا بعذابهم توجهوا بالدعاء إلى ربهم الذي طالما كفروا به، وأعرضوا عن دعائه.

﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧].

ويدعون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويستشفعون بمالك خازن النار بأمنيتهم الأليمة التي يتمنونها: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، هكذا يتمنون الموت ويتوسلون إلى وصوله، وشرّ من الموت ما يُتمَنَّى من أجله الموت، ولكن هذه الأمنية البائسة اليائسة تُرَدّ عليهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فليس لكم إلا العذاب الأبدي والجحيم السرمدي.

١٨ ـ ما يقال لأهل الجنة وما يقال لأهل النار:

يتلقى أهل الجنة طيب القول، فهم الذين هُدوا إلى الطيب من القول، ويسمعون جميل التحية وكريم الترحاب، ولذا فما يقال لهم إكرامٌ مع الإكرام، ونعيمٌ مع النعيم، فأوّل ما يُستقبلون به عند أبواب الجنة وهي مفتَّحة لهم ترحيب خزنتها بهم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. فيُحَيَّون بالسلام والبشرى بطيب المقام، ودوام الخلود.

وتتوالى التحايا عليهم في الجنة من الملائكة، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وتتجدد التحية والسلام لهم في الجنة سلاماً بعد سلام، وإكراماً بعد إكرام.

ويقدَّم لهم الطعام والشراب مع التهنئة والتذكير بما سبق من صالح أعمالهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

أمّا أهل النار فما يقال لهم إلا شديد القول وعنيف الخطاب، من التوبيخ واللَّوم الذي يزيدهم خِزياً وألماً وحسرةً وندماً، فيقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

ثم يُقَرَّعون بالسؤال المحرج المُخزي: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ويتوالى عليهم مع شدة العذاب تذكيرهم بأن هذا هو العذاب الذي كنتم تحذَّرون منه في الدنيا، وتنذَرون به فكنتم تكذّبون وتستهزئون، ها هو ذا فذوقوه إذن: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

ويا لله! ما أعظم مرارة الخيبة ومضاضة الألم! وهم يتلقَّون من العزيز الجبار خطابَ المقت والغضب والحرمان، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠] لَطالما دُعوا في الدنيا إلى الإيمان بالله والتوجه إليه فأعرضوا واستكبروا، فهاهم يجازَون بإعراضهم الإعراضَ عنهم، وباستكبارهم تبكيتَهم وحرمانهم، جزاءً وفاقاً، والله شديد الحساب.

١٩ ـ أهل الجنة ينالون فيها رضا الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، وهذه من أعظم عطايا الله لأهل الجنة، أن يُشهدهم أنه قد رضي عنهم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

أي: أن رضا الله عنهم أكبر من كلِّ ما ذُكر من النعيم، فإن نعيمهم لم يطِبْ إلا برضا الله عنهم وتجلّيه لهم، وأي نعيم أعظم من أنّه عَزَّوَجَلَّ يحبّهم ويحبّونه، وأن رضي عنهم ورضوا عنه؟!.

فرضا الله هو الغاية التي كانوا يقصدونها ويسعون إليها ويسألون الله إياها، فإذا أشهدهم أنه قد رضي عنهم طاب لهم عيشهم الطيب، وقرّتْ عيونهم بنعيمهم.

أما أهل النار فقد باؤوا بغضبه وسخطه: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وقد حاق بهم غضب الله وسخطه لأنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]، وهل يرضى الله عمّن كره رضاه؟!، وهل ينال منِ اتّبع ما أسخط الله إلا سخطُ الله وغضبه؟! اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك.

أهل الجنة ينالون أعلى النعيم وأفضله وأشرفه، وهو الخطاب مع الله، ثم رؤية وجهه الكريم، فإن أهل الجنة إذا دخلوها واستقروا فيها ونالوا الأمن والفوز وظنّوا أن لا نعيمَ فوق هذا النعيم خاطبهم الله عَزَّوَجَلَّ

كما أخبر النبي ﷺ في قَوْلِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]فقال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟. فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟. قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّوَجَلَّ»(١).

وهو ما ذكره الله في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

أما أهل النار فهم محجوبون عن رؤية ربهم عَزَّوَجَلَّ، فهذا نعيم الذين رضي عنهم، ولا نصيبَ فيه لـمَن سخط عليهم، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وهذا من أعظم الحرمان أنهم لا ينظرون إلى ربهم، ولا ينظر إليهم، فلا ينظر إليهم نظر إكرام، ولا يكلّمهم كلام رضا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

٢٠ـ أهل الجنة سيتذكرون الكفار الذين كانوا يحاولون فتنتهم عن دينهم، ثم يُرفع الحجاب بينهم، فيطّلعون عليهم في سواء الجحيم، لتَتِمَّ لهم نعمة الظّفر بالنجاة مِنْ ذاك المصير البائس، وليرُدُّوا إليهم سخريتهم وفتونهم، قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤

(١) «صحيح مسلم» (١٨١)، «سنن الترمذي» (٣١٠٥).

فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصافات: ٥١-٦٠].

وأما أهل النار فسيتذكرون المؤمنين الذين كانوا محل سخريتهم واستهزائهم، وسيبحثون عنهم في جهنّم فلا يجدونهم معهم، فيتساءلون بحسرة: أين هم؟ ما لنا لا نراهم؟! قال تعالى يصف حالهم وخيبتهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة ص: ٦٢-٦٤].

هكذا كانوا ينظرون إليهم في الدنيا بسخرية وازدراء، ويرونهم من الأشقياء الأشرار، فإذا لم يروهم معهم في النار تساءلوا بحسرة: أين أولئك الذين كنّا نسخر منهم؟ كيف لا نراهم معنا؟!.

نعم، لن تروهم، لأنهم ليسوا معكم في هذا العذاب، بل هم هناك في النعيم المقيم، والسرور الدائم: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤].

٢١ ـ أهل الجنة يعيشون نعيما أسريا بمشاركة زوجاتهم وذرّياتهم ومعارفهم، وإنّما يكتمل النعيم ويتّسع بالمشاركة، فكيف إذا كان المشاركون في النعيم هم أسرهم وذوي قرباهم! وقد ذكر الله هذا النعيم الأسري في الجنّة، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: ٢٣].

أما أهل النار فهم في عذابٍ انفراديّ، مشغولون بأنفسهم عن قراباتهم، لا يسألون عنهم.

وعندما ذكر الله المجرم حين يُؤتى كتاب خسارته بشماله من وراء ظهره قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٥]، فذكر سروره مع أهله في الدنيا، ولكن هذا السرور قد انقطع في الآخرة، فليس ثَمّ سرور ولا أهل، ولكنْ معاناة عذاب تُذهله عن كل أحد.

وشتّان بين حال هذا المجرم الخاسر وحال الفائز الذي سيؤتى كتابه بيمينه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، إنه سيأخذ كتابه مستبشراً، وسينقلب إلى أهله ليشاركهم هذه البشرى وهذا السرور.

٢٢ ـ أهل الجنة في عيشة راضية، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، فهم مهما طال عيشهم فهو نعيم متجدد لا يُسأم ولا يُمَلّ، فهم أهل الرضا بنعيمهم في دار المقامة، لا يسأمونه ولا يخرجون منه ولا يُخرجون، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

أما أهل النار فهم مكروبون مغمومون فيها، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، ولو أرادوا الخروج لباؤوا بالحرمان والهوان: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]،

وطمعهم بالخروج طمـــع يائس، فالأغلال في أعناقهم، والسلاســـل في أرجلهم، يرفعهم لهبُها، وتردّهم مقامعُها.

وشتّان بين مَن رضوا بنعيمهم فلا يبغون عنه حِوَلا ومَن يريدون أن يخرجوا من جحيمهم فيُرَدُّون إليه.

٢٣ ـ أهل الجنة عند الله يستشعرون جواره، وقربهم منه في الجنة، وقد ذكر الله ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. فهم في هذا النعيم وهم عند الله، ورفقتهم هناك هم النبيون والصّدّيقون والشهداء والصّالحون، وحسُن أولئك رفيقاً.

أما أهل النار فهم عند الشيطان يشمت بهم، ويتبرّأ منهم، ويحمّلهم تبعة كفرهم وضلالهم، ويخطب فيهم شامتاً ومعنّفاً ومتبرّئاً وكافراً بكفرهم فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهم في النار عند أشقياء البشر وعتاة المجرمين مع فرعون وجنوده وطغاة البشر وزعماء الكفر، يشاركونهم العذاب، وبئس المصير.

وشتّان بين جوار الله ورفقة أنبيائه وأخيار عباده، وجوار الشيطان الرجيم وعتاة الطغاة المجرمين.

تاسعاً: عقاب عادلٌ من ربٍّ رحيم

إن هذا العقاب الشديد والعذاب الأليم والمصير البائس لأهل الجحيم ـ والذي ذكر الله أحواله وأهواله بما يثير الفزع والخوف من التعرض له والمصير إليه – إنما هو جزاءٌ من الله لِمَن يستحقه مِنْ أهل الإجرام الذين كذَّبوا بلقاء الله، وكانوا يستمتعون بخطاياهم، ويستغرقون في جرائمهم، ولم يكفُّوا عنها أو يتوبوا منها، فحشروا إلى الله بآثامهم وذنوبهم، وكفرهم وإجرامهم ليواجهوا العقاب الذي حذرهم الله منه.

إن الله ليس له ثأر عند أحدٍ من خلقه فيطالبه به، ولكنه يعاقب أولئك الذين حذَّرهم فلم يحذروا، وأنذرهم فلم ينتهوا، وأعطاهم فرصة التوبة إلى آخر لحظة من أعمارهم فلم يتوبوا، ولم يستغفروا، ولذلك يُقال لهم في الآخرة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وكل ما يَلقونه من عذاب النار فقد أُنذروا به، وحُذِّروا منه، فإن من تكبر وكفر وأجرم فإنه اقتحم ذلك مع وضوح أمر الله وظهوره وشدة التحذير من المخالفة له، فإن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الإنسان على الفطرة السوية المقتضية لاتباع الحق واجتناب الإثم، ولم يكتفِ بذلك،

بل أرسل الرُسل وأنزل الكتب لبيان معالم طريق الحق، وأكثر من التحذير والتهديد لمن ينحرف أو يضل، وبيَّن عاقبة العذاب الأليم والمصير الفظيع لِمَن أصرَّ على إجرامه وبقي على انحرافه، فمَنِ اختار الكفر والإجرام بعد علمه بذلك كله فإنه قد بلغ من الفساد والانحراف والاستهتار مبلغاً عظيماً، وقد بالغ في ظلم نفسه ولم يظلمه الله، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

لقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله سيُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ثم سيُخرج من النار مَن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان[١]، وهذا يدل على أن من بقي في النار قد بلغ أحط درجات الانحراف والكفر والإجرام، بحيث لم يبق في قلبه أقل قدرٍ من الإيمان والخير، فمن كان كذلك ألا يستحق ذاك العذاب الأليم؟![٢].

ولِذا فلا يصحّ أن تذهب ظنوننا إلى التساؤل عن استحقاق المعذَّبين لعذابهم، فإنّ ربنا له الحجّة البالغة، والعلم المحيط، وهو الحكَم العدل، ورحمته وسعت كل شيء، ورحمته سبقتْ غضبَه، وهو أرحم بخلقه وأعدل في حكمه، ولن تَنالَ عقوبتُه إلا مَن تراكمتْ سيئاتُه وأحاطت به خطيئتُه، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

وينبغي أنْ نعلم أنّنا إذا رحمنا أحداً فإنما نرحم بجزء من مئة جزء من رحمة الله الذي جعله بين خلقه، وأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً

(١) «صحيح البخاري» (٧٥١٠)، «صحيح مسلم» (١٩٣).
(٢) «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث» د. سلطان العميري (٢/ ٩٢ـ٩٧).

من الرحمة يرحم بها عباده، فأين تقع رحمة المخلوق من رحمة الخالق! قال ﷺ: «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءاً، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**»(١).

ورأى النبي ﷺ هو وأصحابه امرأة قد فقدتْ رضيعها، فهي تجول بفجيعة وذهول، ثم رأوها وقد وجدته، فأجهشت بالبكاء وألصقته على صدرها، وجعلت ترضعه، وقد تشبَّثتْ به كأنما سيُنتزع منها، وكان مشهداً عاطفيّاً مؤثراً، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» فعجب الصحابة من هذا السؤال، كيف ترميه في النار وهي التي كادت أن تفقد عقلها حين فقدته؟! فقالوا: لا، يا رسول الله، لا يمكن أن تفعل ذلك. فقال رسول الله ﷺ «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(٢)، فماذا تقع رحمتها اليسيرة العابرة من رحمة ربنا العظيمة الواسعة؟!.

فَعلينا أنْ لا نحاكم ربنا بعقولنا، فإنه وهب لنا العقول لنحاكم بها أنفسَنا، لا لنحاكم بها ربنا الذي وهبها، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ونحن إنما عرفنا العدل لأن الله دلنا عليه وأمرنا به، وأحسسنا بالرحمة لأن الله وهبها لنا وأثابنا عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وحُكْمُه عَزَّوَجَلَّ قائمٌ على كمال العدل، وكمال الرّحمة، وكمال الحكمة، وهو الحكيم العليم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٠٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٩٩٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٤).

والخُلاصة: كما أنه ليس لنا خيار في أن نوجَد في هذه الحياة أو لا نوجَد فكذلك ليس لنا خيار في كيفية المحاكمة التي تكون لنا في الآخرة، ولا نوع العقوبة على كل معصية، فلن نعاقب إلا لأننا فعلنا ما حذرنا الله منه، ولَن نعاقَب إلا بالكيفية التي أخبرنا الله بها.

وقد ذكر الله لنا كيف سيكون ذاك العذاب، حتى نكون على بيّنة من أمرنا وعاقبتنا وعقوبتنا، ولا يقول قائل: لم أكن أعرف هذا العذاب الشديد، ولو عرفته ما كفرت ولا أجرمت، ولآمنت وصدّقت.

والسؤال الصحيح الذي ينبغي أن نطرحه هو: لماذا نسمح لأنفسنا بمخالفة القانون الإلهي الذي نعرفه جيّداً في الدنيا، ونعرف العقوبة التي تترتب عليها في الآخرة؟ وقد منحنا الله فرصة كافية في هذه الدنيا، ومنحنا الحرية التامة لاتخاذ القرار الذي نختاره دون إكراه، ومنحنا فرصة التغيير إلى الأفضل في كل لحظة ما دمنا على قيد الحياة.

لماذا نقول: «إن العقوبة قاسية» ولا نلوم أنفسنا، لأننا أقدمنا باختيارنا، وأوقعنا أنفسنا في هذا العقاب الذي حذرنا الله منه؟![1].

(١) «مجالس التفسير» د. حسن الحميد.

خلاصات عذاب النار

١ ـ ذكر الله أنواعاً من عذاب النار التي يتلقاها المجرمون المعذَّبون فيها، ومن أشدها تبكيت الله لهم، وتذكيرهم بكفرهم وبإجرامهم حين يخاطبهم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]. ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

٢ ـ ذكر الله طعام أهل النار وشرابهم، وهو عذاب فوق العذاب، فالطعام الزقوم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]. والشراب الحميم: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. كما ذكر ثيابهم: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]، وذَكَر أغلالَهم وسلاسلَهم وشدةَ عذابهم، بما يكشف سوء مصيرهم وعاقبة إجرامهم.

٣ـ من أشد حسرات أهل النار حين يجتمعون فيها مع الذين قادوهم إلى الضلال، وتزعموهم في الإجرام، فتحتدم الخصومة ويفتضح الخسران، ويقول الأتباع لقادتهم بحسرة وأسى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، ولن يخفف اجتماعُهم شيئا من حسرتهم وعذابهم: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

٤ ـ مِنْ أعظم المواعظ المقارنةُ بين شهوات أهل الجنة وأمنيات أهل النار، فإن شهوات أهل الجنة تُعرض عليهم بترحاب، وينالونها بمجرد أن يشتهوها.

أما أمنيات أهل النار فهم يتمنون ما كانوا مستكبرين عنه في الدنيا، يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذّب بآيات ربنا، وإنْ طلبوا فقصارى أمانيهم الهلاك، ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ثمّ إن أمانيهم هذه إذا طلبوها تُرَدّ عليهم بالتّبكيت والتّيئيس ليزدادوا عذابا فوق العذاب بما كانوا يظلمون.

٥ ـ إنما ذكر الله صفة عذاب النار وأهوالها، وصفات أهلها تحذيراً من سلوك طريقهم، وتخويفا من عاقبة مصيرهم:

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، كما أن فيه إقامة الحجة على أهل النار، وإعذاراً إليهم، وسيقول الله لهم وهم في دركات الجحيم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]. فلا يجدون بدّاً من الاعتراف المُخزي: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

٦ـ وكما جاءت الآيات تصف العذاب الأليم لأهل النار جاءت بتفصيل أسباب هلاكهم، وتعداد الأفعال التي استحقوا بها سوء مصيرهم، تحذيراً من اتّباعهم، وترهيباً من أفعالهم، ولبيان أنّهم إنّما عوقبوا بسوء صنيعهم وسابق إجرامهم، وأنّهم نالوا جزاءهم باستحقاق إجرامي جزاءً وفاقاً، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

٧ـ من أعظم الذنوب التي يستحق بها أهل النار جزاءهم تكذيبُ رسل الله عَزَّوَجَلَّ، والإشراك به بعبادة غيره معه، وإنكار البعث بعد الموت، ولِذا تبكّتهم الملائكة وتستجوبهم عند إلقائهم في النّار: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩].

٨ـ هذا العذاب الأليم الذي وصفه الله عَزَّوَجَلَّ لأهل النار إنّما هو لِـمَنِ اسْتحق هذا العذاب بسوء عمله، وسابِق جرائمه، ولا بدَّ من التأكيد على أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يظلم أحداً، فلا يعذّب مَن لا يستحقّ العذاب، ولا يعذّب مذنِباً بأكثر مما يستحقّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

الفصل الرابع: الحياة الدنيا والحياة الأخرى

أولاً: قصر الحياة الدنيا

ثانياً: مثل الحياة الدنيا

ثالثاً: الاغترار بالدنيا والغفلة عن الآخرة

رابعاً: عمارة الدنيا والاستعداد للآخرة

الحياة الدنيا والحياة الأخرى

في القرآن وصفٌ للحياة الدنيا التي نعيشها في مراحل العمر وأطواره، فتبين آياتُه سرعةَ زوال الدنيا وتغيرها، وأنها عمر محدود وعابر، وأن ما فيها ينتهي إلى فناء، ولتتضح الصورة لذلك يضرب لها أمثلة مما نشاهده في حياتنا، وبذلك يصور حقيقة الحياة في مشهد سريع متحرك.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ [الكهف: ٤٥].

ولتتضح حقيقة الحياة الدنيا يقارنها بالحياة الخالدة المستقرة: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

إنّ الأرض صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا قليل، ولكن هذا ليس معناه اعتزالَ الحياة وإهمالها، ولا الكراهيةَ لها ولا الهروب منها، وإنما معناه النظر إلى الدنيا موصولة بالآخرة، وعدم الغفلة فيها عن المصير الأخروي الخالد، مع المحاولة المستمرّة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها، والقيام بمسؤولية الحياة بكل أعبائها، والنظر ببصيرة إلى مصيرها وعاقبتها.

وقد ذكر الله الدنيا والآخرة في كتابه في مواضع، فذكر:

أولاً: قصر الحياة الدنيا

إن الحياة مهما طالت وتطاولت فهي في جانب الخلود الأخروي كومضة أو لحظة، وماذا تساوي حياة من عاش عمُراً في الدنيا مهما طال بجانب خلودٍ لا ينتهي، وأبد لا ينقضي؟! وتخيل عمر مَن عاش مئة سنة في الحياة، فماذا تساوي بالنسبة لعمر الدنيا قبله وبعده؟ وماذا تساوي بالنسبة لعمره في عالم الموت والبرزخ بين الدنيا والآخرة؟ ثم ماذا يساوي هذا كله مهما طال وتباعد بالنسبة للخلود الأبدي غير المتناهي في الآخرة؟! وحين يتذكر الناس حياتهم في الآخرة ينظرون إلى الدنيا على حقيقتها، عمرٌ قصير قليل يتذكرونه كيوم أو بعض يوم أو ساعة من نهار.

وحين يسأل الله المجرمين يوم القيامة عن مقدار بقائهم في الدنيا يكون هذا جوابهم اليقينيّ حينها: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾ [الروم: ٥٥].

هكذا بدا لهم كلُّ ما عاشوه في الدنيا من سنين طويلة وما نالوه من متع كثيرة شيئاً قصيراً عابراً، هو في ذاكرتهم ساعة، وهم مستيقنون أنهم لم يتجاوزوا في ممرهم ذلك ساعة واحدة، ويقسمون على ذلك، فهذا الذي بقي منها في ذكرهم وذكراهم.

وكلّ ما تراه من قضايا ضخمة وهامّة وخطيرة في هذه الحياة سوف يبدو أمام المصير الأخروي لهواً عابراً، ولعباً غير جادّ، وإنما الأمر الخطير والحقيقي هو ذاك المصير الخالد في نعيم مقيم أو عذابٍ أليم.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

ولشدة هوان الدنيا على الله وقِلّتها وقصر عمرها جعلها مشاعاً بين خلقه مؤمنهم وكافرهم، وآتى الكافرين المجرمين منها برغم كفرهم وإجرامهم، ومكّنهم من خيراتها وثرواتها وعلومها، فكلّ ذلك متاع قليل زائل، وإنّما الجزاء الحقيقيّ في دار الخلود هناك في الدار الآخرة، والتي ادَّخر الله فوزها ونعيمها للصالحين المتّقين.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وكل نعيم الدنيا وزخرفها وترفها يُنسى مع أول لفحة من عذاب الآخرة، وكلّ بؤس الدنيا وشقائها ومعاناتها يُنسى مع أول نسمة من نعيم الآخرة،

قال ﷺ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟. فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟. فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»[1]. ما أهون الدنيا بجوار الآخرة! وكيف يُقاس نعيم الدنيا القليل النافد بنعيم الآخرة الكثير الخالد؟! وبؤسُ الدنيا العابر بعذاب الآخرة الأليم المتتابع؟! ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٠٧).

ثانياً: مثل الحياة الدنيا

ضرب الله مثل الحياة الدنيا بمشهد حياة الأرض في الرّبيع بعد نزول الأمطار، فتُخرج نباتَها، وتكتسي خضرتها وزهرتها، ثم يكتمل النّموّ ويَيْبَس الزّرع، ويُصبح هشيماً فهباءً تَذْروه الرّياح، وتُصبح الأرض مواتاً لا حياة فيها، وهكذا هي الحياة الدنيا، فكلّ ما فيها مِنْ زينة ومتعة ولذّات وشهوات إنما هي متاع قليل في زمن قصير، ثم يغادرنا ويذهب عنّا، أو نغادره ونذهب عنه، ونكتشف بعد أنه متاع الغرور، وأنّ حياتنا الحقيقية هي التي انتقلنا إليها، وليست التي غادرناها، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

ثالثاً: الاغترار بالدنيا والغفلة عن الآخرة

كثيرون هم النّاس الذين يعيشون في هذه الدنيا وكأنّها قرارهم وكلُّ أعمارهم، فهم في استغراق مع شؤون الحياة يشبه الإغماء، فهَمُّهُم وحديثُهم عن قضايا الحياة لا يَعدُوها، وكأنّ الكل مشدود بحبال وثيقة إلى شواغل الدنيا لا يتجاوزها أبداً إلى ما بعدها، ولا يرتقي منها إلى مصرِّف أمورها، ومالِك زمامها، ولا حديثَ أبداً عن لقاء الله وهو حتمٌ، ولا عن عقابه وثوابه ولا بدّ منهما، فلهؤلاء نصيبهم من قول الله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

إنّ الاهتمام بالدنيا حقٌّ، على أن تكون وسيلة إلى ما وراءَها، أمّا الِانْكباب عليها والغفلة عمّا بعدها فَضَلالٌ بعيد.

وقد بيّن الله حال أولئك الذين أُشربوا هَمَّ الدنيا حتى سكروا فيها، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

رابعاً: عمارة الدنيا والاستعداد للآخرة

خلق الله هذه الأرض وأودع فيها خيراتِها وقدّر فيها أقواتها، وجعلها مُهيَّئة لمعاش الناس وحياتهم، فعمارة الكون واستغلال خيراته تحقيقٌ لما أراده الله من عباده وسخّره لهم، ولِذا امتنّ عليهم بما جعل لهم في الأرض ووجّههم إلى استغلاله فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إنّ الإيمان بأن الحياة الأرضية ممرّ لا مقرّ، وأن لقاء الله لا بد منه، وأن الاستعداد لهذا اللقاء مطلوب؛ كل ذلك لا يعني الإعراض عن الدنيا، وترك التمتع بطيباتها، وتشييدها وعمارتها، فليس هذا هديَ القرآن الكريم

ولا سنة النبيّ العظيم ﷺ، فاليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، وميزان القرآن الكريم: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [القصص: ٧٧].

خلاصات الحياة الدنيا والحياة الأخرى

١ ـ ذكّرت آيات القرآن بقصر الحياة الدنيا وسرعة زوالها، وأن ما فيها متاع قليل ومصيره الفناء، وكل ما يملكه الإنسان في هذه الدنيا فهو ملك مؤقت، فإما أن ينتقل عنك، أو تنتقل أنت عنه، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

٢ ـ ذكر الله مثالاً مشهوداً محسوساً يُقرِّب صورة الحياة الدنيا وما فيها من متاعٍ وزينةٍ وهو مشهد الأرض ينزل عليها المطر فتُنبت وتُزهر وتهيج، ثم يذبل نباتها وييبس، فتتحول الخضرة إلى جدب، والنباتُ إلى هشيم، والحياة إلى موات، وهذا مشهد يتكرر في حياة الناس ويتابعون تسارعه، وهو مثل الحياة الدنيا وزينتها.

٣ ـ هناك أمم وأفراد يحيون لهذه الدنيا وحدها، ولا يعنيهم ما وراءها، ويبذلون قواهم ومواهبهم للاستحواذ على خيراتها، والاستمتاع بها دون شكرٍ لخالقها أو تقديره حقّ قدره، وقد بيّن الله أنه يُمكِّن لهم في الأرض بقدر جهدهم دون بخس أو حَيف، أما الآخرة فلا نصيب لهم فيها

لأنهم لم يعملوا لها، ولم يكترثوا بها، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

٤ ـ كل ما ورد في القرآن من بيان قِصَرِ الدنيا وقلة متاعها وسرعة زوالها هو للتحذير من الاغترار بها والغفلة فيها عن الآخرة، وليس للتزهيد في طيباتها، ولا حثّاً على حرمان النفس من خيراتها، فإن الله جعل فيها هذه الطيبات وهذه الخيرات لنا فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وليس من شعائر الدين تركُ الطيبات وحرمانُ النفس وتعذيبُ الجسد، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

٥ ـ العالم الحديث اليوم لا يكترث للدار الآخرة، ولا يستعد لحسابها الثقيل، إنه مشغول بالأرض وحدها، مشدود إلى مغانمها، غافلٌ عن الآخرة مُعرِضٌ عنها.

وقد أكد المرسلون كلهم أن الحياة الدنيا مقدّمةٌ وجيزة لكتابٍ طويل، وأن البشر الذين يحكمهم الزمن هنا سوف ينتقلون إلى حياة أخرى ينعدم فيها الزمن، فهي خلود لانهاية له، وعلى البشر أن يهيّئوا أنفسهم بالتزكية وصالح العمل، ويُعِدّوا أنفسهم لذاك البقاء السرمدي، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

٦ ـ إن الرغبة الشائعة في عصرنا عن ذكر الآخرة ترجع إلى اهتزاز الإيمان بها وفراغ القلوب منها، ولِذا كرر القرآن التذكير بالآخرة فلا تخلو أكثرَ سُوَره مِنَ التَّذكير بها، ووصفها، والأمر بالاستعداد لها، فكلما ذُكِرَت الدنيا ذُكِرَت الآخرة معها، وكثيراً ما تُذكر الآخرة وحدها.

كما ربط القرآن سلوك المسلم وعبادته بالإيمان المتصل بالآخرة، والذي يجعل الحياة الآخرة تتمة للأولى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

الخاتمة

وبعد هذا السفر البعيد البعيد إلى الحياة الخالدة بعد الحياة العابرة، والذي تجاوزنا فيه الدنيا إلى الآخرة، وتجاوزنا الموت إلى البعث، وتنقلنا في مراحل اليوم الآخر إلى المستقَّر الأخير في الجنة التي حسُنَتْ مُستقَراً ومُقاماً، أو النار التي ساءت مستقراً ومقاماً، نلاحظ:

١ـ ستكون الآخرة حاضرةً في الدنيا حين نعلم أنهما حياتان: حياتنا الدنيا، وحياتنا الآخرة، والموت بابٌ بينهما، وكل ما في الحياة الآخرة من نعيم فالطريق إليه يبدأ من الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

ومن آمن بالآخرة انبعثت همته للعمل، والمنافسة والمسابقة إلى ذلك النعيم بالبر والإحسان والعمل الصالح، فالإيمان بالحياة الآخرة ليس بديلا عن الحياة الدنيا، بل هو نور الحياة الدنيا وصلاحها، وكثيرا ما يأتي التذكير بالحياة الآخرة في سبيل الإنفاق والتضحية والعمل الصالح.

الإيمان باليوم الآخر يبعث اليقين والراحة والسعادة والطمأنينة، فلا تحطِّمَ المؤمنَ مصيبةٌ، ولا تبطره نعمة، ويظل في حياته الدنيا يُطِلُّ على آفاق رحيبة من الآخرة، ويعلم أن الله سيعوّضه فيها عن كل ما فاته في هذه الدنيا إن هو آمن واتقى، ولا سواء بين رجل ينظر لدنياه بأفق الآخرة الرحيب، وآخرَ ينظر لدنياه بحجاب كثيف لا يرى معه الحياة الأخروية، ويعيش في دنياه كما يعيش المحبوسون في الأقبية الـمُظلمة.

وكلّ نظام الدنيا مبني على أساس أنها ميدان مؤقت للاختبار، ثم يتبعه يومُ القيامة الذي سيكون فيه الحساب والجزاء على ما جرى في هذه الدنيا، ثم الخلود في النعيم أو الشقاء بناءً على نتيجة الحساب.

وأفضل دواء للصبر على آلام الدنيا من ظلم وشرّ ومصائب وقهر هو استحضار الآخرة.

كما أن أفضل دواء لعدم الاغترار بالدنيا والارتهان لها تَذكُّرُ زوالها وبقاء نعيم الآخرة.

وأفضل دواء للتغلب على الشهوات وترك المحرمات: استحضار عذاب الآخرة.

وأفضل محفز لعمل الصالحات: الاشتياق للقاء الله وتذكر نعيم الآخرة.

٢ـ سعة الحديث عن الآخرة في القرآن، وكثرته وتأكيده بالتكرار والتنويع حتى لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من ذكره أو الإشارة إليه، ولولا القرآن لنسينا الآخرة، ولو نسينا الآخرة لتحطَّمَتْ نفوسنا

وخسرنا آخرتنا ودنيانا، قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اعلـمْ أنَّه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أفقر، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإنه سيمر بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه[١]. وهذا يبيِّن مسيس الحاجة إلى كثرة تَذكُّرَ الآخرة واستحضارها، وعدم الاستغراق في الغفلة عنها، وإنك لتعجب من حضور الآخرة في حياة النبي ﷺ وأصحابه وكثرة ذكرها والتذكير بها، حتى خالَط ذِكرها كل شأن من شؤونهم، جلس ﷺ مع أصحابه على الطعام فرُفِعَت إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فلما رأى أصحابَه لا يسألونه قال: «**أَلَا تَقُولُونَ كَيْفَهْ؟**». قالوا: كَيْفَهْ يا رسولَ الله؟. قال: «**يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ...**». ثم ذكر وقوف الناس يوم القيامة وطلبهم الشفاعة إلى الأنبياء في حديث عن الآخرة طويل[٢]، وكان هذا الحديث الأُخروي على مائدة الطعام.

وأُهديت له ﷺ حُلّة حرير فلبسها قبل أن يُحرَّم لُبْسه، فجعل الصحابة يلمسونها ويتعجبون من نعومتها ولينها، فقال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا**»[٣]. وهو في ذلك يمدّ أبصارهم إلى الآخرة حتى لا تغفل عن ذكرها بمتاع الدنيا وزينتها.

---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (١٠١٤٧)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١/ ٤٥٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).

٣ـ تكرر ذِكر تكذيب المكذبين بالآخرة، وتنوعت الأدلة على إثبات البعث بعد الموت والحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا، وهي أدلة تخاطب تفكّر العقل، وتوقظ إحساس القلب، وتغلق على النفس خواطر الإنكار والتنكر لموعود الآخرة الصادق.

ومع ذلك يوجد مَن ينكر الآخرة، ويُكابر يقين الإيمان بها، وربّما كان ذلك هروباً من مواجهة تبعات الإيمان وتحمّلِ مسؤولية الأعمال، ليعيش حياته مغامرة لاهيةً، لا عاقبةَ لها كما يتوهم.

وقد كان بعض الحكماء يقول لمنكري الآخرة: إن كان الأمر كما تقولون فقد سلمتم وسلِمْنا، وإن كان كما نقول فقد نجونا وهلكتم. وهذا يقال على سبيل التنزُّل والإلزام، وإلا فإن الإيمان بالآخرة يقينٌ عميق في النفس، يقوم على التعظيم لله ورجائه وهيبته، وليس إجراءً احتياطياً في مغامرة ربحيّة[1]، قال تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

٤ـ أن ما ورد في القرآن من وصف لموقف القيامة المهول، وعذاب النار الأليم، وتفصيل لشدائد القيامة وكربها، وعذاب النار وأهوالها، فإن ذلك يأتي مصحوباً بالبشرى لكل مؤمن بالله مُوقنٍ بلقائه، مُتهيِّب للموقف بين يديه، فإن هذه الشدائد والكرب وأنواع العذاب تذكر عقاباً لأولئك المكذبين الذين تنكَّروا في حياتهم لله ولقائه، ولِذَا يقال لهم وهم في ذهول البعث: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]،

(١) يُنظر فصل: «باسكال ورهانه الإيماني» من كتاب «ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي» سلطان العميري (٢/ ٤٢).

ويقال لهم وهم يتقلبون في النار: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ويأتي ذكر شدائد القيامة وعذاب النار مقروناً بالكفر بالله والتكذيب بلقائه والإعراض عن آياته، فمَنْ آمن بالله وأيقن بلقائه واستعدّ لذلك بصالح العمل فهو بمنجاة عن هذا الفزع وذلك العذاب.

فاهنأ ـ أخي المؤمن ـ بإيمانك، واستشعر عظيم مِنة الله وفضله عليك بالإيمان والهداية، وهنيئاً لك بنعمة اليقين، فإيمانك بالله ولقائه عاجل البشرى بالأمان يوم الفزع، والفوز الكبير بنعيم الجنة، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَـمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ**: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[(١)].

٥ـ هذا الكتاب بين يديك كتاب موعظة وذكرى، وليس بحثاً أكاديمياً فيه صرامة الترتيب وابتكار التجديد، ولِذا يوجد فيه تكرارُ المعاني بحسب تجدّد مواقعها، والاستطرادُ بحسب ما يدعو إليه السّياق.

وكان الحضور والاستحضار لآيات القرآن الواصفة لمشاهد الآخرة، ولن يصف أحد الآخرة كما يصفها الذي أعدَّها ووعد بها.

وقد أفدت واستمددت فيما كتبت من مراجع وكتب، ومن أهمها وأكثرها إفادة: «مشاهد القيامة في القرآن» و«في ظلال القرآن» لسيد قطب،

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢٤).

و«المحاور الخمسة في القرآن» لمحمد الغزالي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، فقد تحدثا عن الآخرة وكأنما كانا يعيشان فيها ثم جاءا إلى الدنيا يصفانها لنا، ولم أُشر إلى ما اقتبسته منهما، لكثرته والتصرف في صياغته، وما نقلته عن غيرهما أشرت إليه في موضعه.

والله أسأل أن ينير بصائرنا ويوقظ قلوبنا، ويهدينا سبيل السلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
تمهيد: خواطر في الموت والحياة ١١
أولاً: طريقنا إلى الموت ١٣
ثانياً: أهكذا الموت، أهكذا الحياة؟ ١٨
ثالثاً: الموت وحياةٌ بلا إيمان ٢٠
رابعاً: الإيمان في استقبال الموت ٢٦
خامساً: الاستعداد للموت ٣٠
سادساً: ذقت طعم الموت ٣٨
سابعاً: الإنسان والبحث عن معنى ٤٣
ثامناً: في ساحة سراييفو ٤٧
تاسعاً: رهاب الموت ٤٩
عاشراً: كشف أستار الموت ٥٢
الفصل الأول: اليوم الآخر ٥٧
أولاً: الموت ٥٩
ثانياً: حياة البرزخ ٧٤
ثالثاً: البعث بعد الموت ٧٦
رابعاً: وصف القيامة والحساب ٩٦
خامساً: لا ظُلمَ اليوم ١٢٣
الفصل الثاني: الجنة وأهلها ١٣٥
الجنة وأهلها ١٣٧
أولاً: سعة الجنة ١٤١
ثانياً: على باب الجنة ١٤٤

ثالثاً: مساكن الجنة ١٤٨
رابعاً: الحياة الأسرية في الجنة ١٥١
خامساً: طعام أهل الجنة ولباسهم ١٥٤
سادساً: النعيم النفسي لأهل الجنة ١٦٠
سابعاً: صفات أهل الجنة ١٧٢
الفصل الثالث: النار وأهلها ١٧٩
النار وأهلها ١٨١
أولاً: الخارجون من النار والماكثون فيها ١٨٤
ثانياً: دخول المجرمين النار ١٨٩
ثالثاً: طعام أهل النار ولباسهم ١٩٢
رابعاً: شدة عذاب أهل النار ١٩٤
خامساً: شهوات أهل الجنة وأمنيات أهل النار ٢٠٠
سادساً: تخاصم أهل النار ٢٠٥
سابعاً: أوصاف أهل النار ٢١٠
ثامناً: بين نعيم الجنة وعذاب النار ٢١١
تاسعاً: عقاب عادلٌ من ربٍّ رحيم ٢٢٧
الفصل الرابع: الحياة الدنيا والحياة الأخرى ٢٣٥
الحياة الدنيا والحياة الأخرى ٢٣٧
أولاً: قصر الحياة الدنيا ٢٣٨
ثانياً: مثل الحياة الدنيا ٢٤١
ثالثاً: الاغترار بالدنيا والغفلة عن الآخرة ٢٤٢
رابعاً: عمارة الدنيا والاستعداد للآخرة ٢٤٣
الخاتمة ٢٤٨
فهرس الموضوعات ٢٥٥

أحاول وإياكم في هذا الكتاب اقتحام ذلك الموضوع الذي طالما هربنا من التفكير فيه، وطالما استبعدنا الوصول إليه.

كثيراً ما ذُكّرنا به فتجاوزناه ولم نقفْ عنده، وكأنّما نمارس الهروب من الموت بالهروب من ذكره.

ولذلك فإني وإياكم نحاول في هذه الصفحات مواجهة هذا المصير والتفكر فيه قبل الوصول إليه ومواجهته.

وذلك بتأملِ المشاهد القرآنية لرحلة الخلود، حتى نرى بيقينِ الإيمان مشاهدَ الحياة بعد الحياة، ورحلتنا من الموت إلى الخلود.

إن عيش الآخرة من خلال آيات القرآن خير محفّز للاستعداد لها، حتى لا نستنيم للغفلة، أو نغتر بطول الأمل، فالأمر أعجل من ذلك، فما أسرع أن تطوى مراحل العمر، ويقطع الأجلُ كلَّ أمل، ونواجهَ بوابة الموت، فنكون قد وصلنا إليها على استعداد للمواجهة، وتأهبٍ للرحلة.